

الجزء الاول

من

كتاب

(ليالى سطيح)

تاليف

محمد حافظ ابراهيم

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعه الاول سنة ١٣٢٤ هجريه و ١٩٠٦ ميلاديه)

طبع بمطبعة الاصلاح بشارع محمد على بمصر لصاحبها ابراهيم نوزى

سطيح

حدّث أحد أبناء النيل قال :

ضاقت عن النفس مساحتها لهمّ نزل بي وأمر بلغ مني خرجت أروح عنها وأهون عليها فما زلت أسير والنيل . حتى سال ذهب الأصيل . فاذا أنا من الاهرام . أدنى ظلام [1] وقد فتر مني العزم وسئمت الحركة فجلست أنفّس عني كرب المسير واضطجعت وما تنبعث فيّ جارحة من التعب وكنت من نفسي في وحدة الضيغم . ومن همومي في جيش عرمرم وجعلت افكر في هذا الدهر وأبنائه فجرى على لساني ذكر ذلك البيت

عوى الذئب فاستأنست للذئب اذ عوى
وصوت انسان فكدت أطير

(١) اعني قريباً

فرددته ماشئت . وتغنيت به ما استطعت . وقلت أى والله لقد صدق القائل ماخلق الله خلقاً أقل شكراً من الانسان . ولا اطبع منه على افتراء الكذب والبهتان

ثم مر بالخاطر . بيت آخر

تباركت أنهار البلاد سوائح بعذب وخصت بالملوحة زمزم

فنقلت اليه متاعي وحولت حاشيتى وما متاعى غير الأمانى السانحة.ولا حاشيتى سوى الهموم الفادحة . ولبثت اتفيأ من ظلاله . وأتأمل فى حسن أشكاله . وإنى لكذلك اذ سطعت ريح كريهة انهزم أمامها النسيم وأنقبض لها صدر الجو وتعبس بها وجه النهر فعلقت أنفاسى ولكن بعد أن نالنى منها ماصدع الرأس وغشى البصر ولما أفقت من هذه الغشية وانجلت تلك الغاشية نظرت فاذا أصل البلاء.جيفة فوق وجه الماء.فغاظنى ما أرى وهاجنى ما أشم وقلت أخاطب النيل

ويحك الى متى يسع حلمك جهل هذه الأمة المكسال والى كم تحسن اليها وتسىء اليك . علمت أن سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك واتكلت على حلمك وبالغت بعد ذلك

فى عقوقك ولقد كانت ترجو فى سالف الدهر خيرك وتتقى شرك فتحتفل فى مهاداتك.وتحامى طريق معاداتك.أذاقتك وصال الحسان . وخالفت فيك شريعة الديان . وأرشفتك رضاباً أعذب من مائك.وأحلى من وفائك. ثم غيرها عليك الزمان فجادتك بعرائس الطين . بعد عرائس الحور العين. وأمعنت فى العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ثم أمنعت فى العقوق فصيرتك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى البلاء . ومستودعاً للوباء

سبحانك اللهم هذه زمزم على ملوحتها قد عزت بجوار بيتك القديم فتهادى بمائها القصاد . وحملوه الى أقصى البلاد وحرص أهلها على عينها حرص المرء على عينه . وهذا النيل على عذوبته قد ذل بجوار قوم أهانوه.ولو كان عند غيرهم لعبدوه وتالله لو جرى فى غير مصر لبنوا عليه أسواراً من النفوس وأقاموا عليها حرساً من الضمائر . أف لتلك الأمة جهلت قدر محييها ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الارزاق . ومن حمرة مائه تخضر تلك الاوراق . أف لها ما أقل شكرانها

واكثر كفرانها . ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه ويكتب فيها الكاتب فينبرى له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلها فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره . ويقهره على شعره

يارب اخرجنى الى دار الرضا عجلا فهـذا عالم منحوس
ظلوا كدائرة تحول بعضهـا عن بعضها فجميعها معكوس

ثم انى أمسكت عن الكلام . وعزمت على التحول من هذا المكان . وإنى لأهم بالنهوض اذ وقع فى سمعى صوت إنسان . يسبح الرحمن . يقول فى تسبيحه سبحان من حكم على الخلق بالفناء . سبحان من تفرد بالبقاء . فخشع قلبى عند ذكر الله وقلت انطلق الى صاحب ذلك الصوت فلعلى أظفر باحد عباد الله الصالحين . فاستدعيه لى دعوة يمحو الله بها اثر استجابته فىّ لدعوة ذلك «الامام» فثرت من مكانى وأخذت سمتى الى جهة الصوت وكنت اذ ذاك فى أوليات الليل وتالله انى لأقترب منه واذا به يقول

أديب بائس . وشاعر يائس . دهمته الكوارث ودهته الحوادث . فلم تجد له عزما . ولم تصب منه حزما خرج يروح عن نفسه . ويخفف من نكسه.فكشف له عن مكانى وقد آن أوانى . أى فلان لقد أخرجت للناس كتابا ففتحوا عليك من الحروب أبوابا . وخلا غابك من الاسد فتذاءب عليك أهل الحسد . اى فلان اذا ألقى عصاه ذلك المسافر . وغادر بحر العلم أرض الجزائر . فقد بطل السحر والساحر . فانكفىء الى كسر دارك . وبالغ فى كتم أسرارك واقبل غدا مع الليل . وترقب طلوع سهيل.ومتى سمعت من قبلنا التسبيح . فقل لصاحبك الذى يليك هلم الى سطيح

ثم أنقطع صوته فلبثت فى مكانى حتى استوحشت لوحدتى وانفرادى فى جوف ذلك الليل فرجعت ادراجى وكنت منذ لقيته وأنا فى ذهول من عقلى . ودهشة من أمرى.ولما ثاب إلى السكون جعلت أتأمل فى عباراته وأتروى فى مغزى سجعاته.وقلت فى نفسى لقد كنت أعلم أن سطيحا قد قضى نحبه . ولقى ربه . فهل صدق القائلون بالرجعة أم جعل الله

لكل زمن سطيحاً. على أني في غد سألقاه . وأطلب اليه أن أراه . وأسأله عن أشياء كتمتها في صدري . وكادت تدخل معي قبري

فانطلقت حتى اذا بلغت داري وقد شابت ذوائب الليل أخذت مضجعي وجعلت أعالج النوم ولكن طافت بالرأس طائفة من الافكار . فباعدت مابين الجفنين . وأزعجت مابين الجنبين . فأقض[1] علي المضجع وحاربني الفراش فقمت الى الشمعة فأشعلتها . والى لزوميات أبي العلاء ففتحتها . فوقع نظري فيها على قوله

أيا دار الخسار ألى خلاص فاذهب للجنوب أو الشمال
وظلم ان أحاول فيك ربحاً ولم أخرج اليك برأس مال

فاستشعرت نفسي الراحة وسرى عني ما كنت أجده من الغم . ونشطت الى القراءة فما زلت أنهل من معان لم تخضها أعين القارئين ولم يخلقها تداول الألسن وأتروى من

---

(١) القض والقضيض هو الحصى الصغير واقض عليه المضجع أي امتلأ عليه حصا فتعذر عليه النوم.

حكم فجر الله ينبوعها فى جوف ذلك الحكيم حتى فصحنى[1] النهار فنمت ماشاءت العين وانتبهت وقد بلغ ظل كل شيء مثليه فأصلحت من شأنى وخرجت أطلب الموعد ونفسى الى رؤية سطيح فى شوق الأسير الى الفكاك وقد حضرنى قوله « فقل لصاحبك الذى يليك هلم الى سطيح » فجعلت أقول ياترى أيّ صاحب عنى ولكن لعل الاسباب التى ساقتنى الا الاهتداء اليه تجمع بينى وبين ذلك الصاحب فما زلت أواصل السير وأنا بمنزلة بين الريث والعجل حتى بلغت مكان الأمس فاذا فيه انسان أعرفه قد أطرق اطراق المتأمل وسكن سكون الوقور فكرهت أن أقطع عليه تأملاته وقلت لم يجلس هذا الرجل العظيم تلك الجلسة الا وهو يريد الانفراد بنفسه فلعله يفكر فى خير لوطنه وسعادة لابنائه فجلست على كثب منه والقى فى روعى انه طلبة سطيح ولبثت أنظر اليه ولبث ينظر فى أمره حتى مرت بالنهر جارية عليها من الجوارى الحسان مايفتن اللب ويملك القلب وهن متبذلات يخضن فى

(١) فصحة النهار اذا ظهر له ضوءه

للهو ويمرحن في اللعب وبينهن رجال تستروح منهم روائح
السلطة والجاه يتهادون رياحين المجون ويتعاطون كؤوس
الراح . ممزوجة برضاب أولئك الملاح . فرأيت صاحبي وقد
رفع رأسه ومد عينيه ثم تأوه آهة الرجل الحزين وقال يحدث
نفسه بصوت تسمع فيه رنة الأسف ألا يأتى أولئك الموكلون
بالرد على أهل الصواب فينظروا ماصنع أهل النعيم . في يوم
شم النسيم . ويروا كيف ابتذلت فيه الخدور . ونفقت سوق
الفحش والفجور . فلقد فعلوا تحت الحجاب ما ينكس له
الأدب رأسه ودعوناهم الي غير ذلك فأبوا علينا الطلب
وانكروا الدعوة وقالوا إن فى تربية النساء مالا تحمد معه المغبة
وأن فى اختلاطهن بالرجال مايسوء معه المصير وصاح يومئذ
صائحهم إن فى ذلك عقوقاً لأوامر الدين وانحرافاً عن صراط
السلف الصالح ودعانا شاعرهم الى اليأس من جدالهم . فى طاب
اصلاح حالهم بقوله

فلو خطرت فى مصر حواء أمنا
يلوح محياها لنا ونراقبه

وفى يدها العزراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الاملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل
لقلنا نعم حق ولكن نجانبه

ولقد صدق الشاعر. واستهتر المكابر .وغفل الحق عن الباطل فصمتنا حتى ينتبه الحق من غفلته ولا زلنا الى اليوم صامتين .

ولما نفث ما بصدره وعاد الى سكونه تراءيت له ثم حييته وجلست اليه أحدثه ويحدثنى وقد اقبل بوجهه عليّ وتبسط معى على الانس فذكرت له حديث سطيح وما كان من أمره فهزه الشوق الى رؤيته وقد كنت أخبرته أن سطيحا جعل لى آية الى لقائه فلبث يرتقب معي طلوع سهيل. ويتسمع التسبيح فى جوف ذلك الليل . حتى اذا لاح النجم في السماء وعرفناه بما وصفه به أبو العلاء.

وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان
مستبداً كأنه الفارس المعـ لم يبـدو معارض الفرسان
ضرّجته دماسيوف الاعادى فبكت رحمة له الشعريان

القينا بالسمع وأمسكنا عن الكلام فلما علا التسبيح هرولنا الى سطيح واذا بالصوت الذى سمعته بالأمس ينادى صاحبي بقوله

صاحب مذهب جديد . ورأى سديد . دعا القوم الى رفع الحجاب. وطالبهم بالبحث فى الأسباب. فالقوا معه نقاب الحياء . وتنقبوا من دونه بالبذاء . أى فلان اذا مضت على كتابك خمسون حجة . وظهر لذى العينين أدلاؤك بالحجه تكفل مستقبل الزمان . باقامة الدليل والبرهان . فلعل الذى سخر لجماعة الرقيق والخصيان . من انقذهم من يد الذل والهوان يسخر لتلك السجين الشرقية . والاسيرة المصرية . من يصدع قيد اسرها : ويعمل على اصلاح أمرها .

أوصى نبينا بالضعيفين « الرقيق والمرأة » نخالفنا وصيته ولم نتبع سنته . قمنا الى الأول فجبينا منه المذاكير . وعمدنا

الى الثانية فزججنا بها فى سجن المقاصير .فقيض الله للأول من اعـدائنا من دعا الي عتقه . وسعى سعيه فى تحريره من أسره ورقه . وتالله ليأتين يوم تقوم فيـه النساء الغربيات . تطالب برفع الحجاب عن اخواتهن الشرقيات. وهنالك يعرفون قدر كتابك. ويدركون مقدار خطئهم من مقـدار صوابك فانتظر وإن طال الأمد ذلك اليوم .ولا تبخع نفسك أسفاً على أثر القوم . فهم أقل العالمين شكراناً . وأكثر خلق الله كفراناً

وهل أتاك حديث تلك المصرية الصالحة اذ رأت قومها يعانون أصناف الشقاء فى دفن موتاهم لو عور طريق المقبرة وقيام التلال فى سبيلها .فانفقت من مالها على تمهيـد تلك السبيل احتساباً للخالق ورأفة للمخلوق فكان منهم ان كافؤوها على ذلك العمل المبرور بأن سموا طريق المقبرة: (بقطع المره) فانظر الى أى حد بلغ العقوق من نفوس قومها واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا .

ثم انقطع صوته فأشفقت أن يكون نصيبي من رؤيته

كنصيب الأمس فقلت له ياوليّ الله قد سمعنا صوتك ولم ننظر الى شخصك فهل لك أن تمن علينا برؤية شخصك الكريم. كما مننت علينا بسماع قولك الحكيم. فقال لقد قدر أن تراني . بعد أن كشف لك عن مكاني. فلا تقطع غدك الزيارة. واذكر ما بيننا من الاشارة . ثم أخذ في تسبيحه وأخذنا في طريقنا الي المنازل وما زلنا نخوض في أحشاء الليل وفي صنوف الأحاديث حتى بلغنا منتزه الجزيرة فاذا نحن بشابين يمشيان على الاقدام فدانيناهما لنسمع مايدور بينهما فاذا الأصغر يقول للاكبر هل لك أن تذكر لي أقصى أمانيك في هذه الحياة الدنيا قال الاكبر اقصى أمانيّ ان أصبح « الرئيس الشرف » للمحكمة المختلطة فأجلس في كل عام ساعة واحدة أنقد عليها ما يقوم بنفقة العام كله فان أسعد المصريين حالا وأرخاهم بالاً من سهلت له الاقدار الجلوس على ذلك الكرسي الذي لا يسأل صاحبه عن الخطل. ولا يخشى عليه من الوقوع في الزلل. قال الاصغر أفّ لك تمني الرزق في ظلال الكسل . والبعد عن الكد والعمل. أما أنا فأقصى أمانيّ أن أكون مثل ذلك التلميذ

الذى دخل منذ عامين فى مدرسة المهندسين فانه قد بلغ من الاكرام والتعزيز منزلة لم تبلغها أولاد القياصرة. فاذا حق لمتعلم أن يفتخر فهو الحقيق بالفخر فانه يتلقى دروسه على انفراد فى « فصل السنة الاولي » من طائفة من المعلمين الانكليز ينقد أقلهم مرتباً خمسة وثلاثون قطعة من الذهب ولو شاء القيصر تعليم نجله الوحيد لما فعل أكثر من ذلك وهذا كله بفضل عناية ديوان المعارف وحرص القائمين فيه بالأمر على التعليم

قال الأديب فامتلأنا عجباً من ذلك الحديث وانطلقنا حتى اذا جاوزنا مربض الليثين أخذ كل منا طريقه الى داره ولما بلغت منزلى أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغابرة فقلت مالهذا الأرق من دواء. إلا لزوميات أبى العلاء. فقمت اليها وفتحتها فأخذ نظرى فيها قوله

الروح والجسم من قبل اجتماعهما كانا وديعين لاهماً ولاسقما
تفرد المرء خير من تألفه بغيره وتجر الألفةُ النقما

ثم قرأت قوله

اسمع نصيحة ذى لب وتجربة يفدك في اليوم ما فى دهره علما

إذا أصاب الفتى خطب يضربه فلا يظن جهول أنه ظلما
قد طال عمرى طول الظفر فاتصلت
به الأذاة وكان الحظ لو قلما "

فقلت إى والله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شعوب. وتطلب السلامة من عاديات الخطوب. والأعمار كالأظفار كلما طالت تخللتها الاقذار . واستبشعت رؤيتها الابصار

وهكذا أفنيت فحمة الظلام وأنا أنزه النفس بين تلك السطور والكلمات حتى صاح ديك الصباح. فأخذنى النوم ولم أنتبه حتى شمر النهار أو كاد. فشمرت الى الموعد ولما بلغت المكان المعهود القيت فيه سوريا من صفوة الأدباء كانت لى به صحبة قديمة فقلت لأمر ما جلس الأديب تلك الجلسة واختلس من رقدة الزمان تلك الخلسة . فقال بعد أن هش لرؤيتى وبش للقائى جلست أبث الي النيل شكاتى من ابنائه وأنت تعلم أنهم صارمونا على غير ريبة وقاطعونا عن غير ذنب وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ولم

يراعوا حق الجوار فسموا اقدامنا لحة ونشاطنا جشما. وكدحنا وراء الرزق فضولاً ونزوحنا عن الوطن عاراً وضربنا فى الارض شروداً وماذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق فى بلاد الله اللهم انها محاسن عدوها عيوبا وحسنات سموها ذنوباً

اذا محاسنى اللاتى عرفت بها

كانت ذنوبى فقل لى كيف اعتذر

وما ذاك الا لأنا لانحسن التنكيت . ولا نتقن التبكيت قلت له وقد وقع فى نفسى كلامه وبلغ منى مقاله خفض عنك أيها الأديب فسأرفع أمرك الى سطيح قال ومن سطيح قلت انك لاتلبث أن تسمع كلاماً أحلى من الأوبة . وأروح للنفس من مغبة التوبة . ثم أخبرته الخبر فلبث ينتظر الآية معى حتى لاحت فأخذنا طريقا الى سطيح وإذا به يقول لصاحبى

أختان أمهما اللغة العربية . تشرف عليهما الدولة العلية . مصر دار الأمان . وسوريا روضة الجنان . اى فلان ضع خريطة الارض بين يديك . ثم اغمض بعد ذلك عينيك . واهو

بأصبعك عليها.وأنظر نظرة الحكيم اليها • تجد فى موقع ذلك الاصبع •سوريا يعمل ويبدع .فأنتم أهل العمل والنجدة.وان كان بأخلاقكم بعض العهده (١)

يهبط السوري مصر لطلب القوت فاذا أثرى بكده وعمله وأراد القفول الى وطنه حمل تلك الثروة الى بلاد الدولة العلية ويهبطها الرومى فيثرى ماشاء ثم يحاربها بتلك الثروة ومن العجب أن يكثر القال والقيل. ويدعى الأول بالدخيل. ولم يجر للثانى ذكر على اللسان . وهو الحقيق بالجفاء والعدوان •

أنسي أبناء اللسان العربى أن جماعة السوريين قد بلغوا فى نشر اللغة العربية منزلة لم تبلغها جماعة المبشرين في نشر الملة المسيحيه .

ذكر ابن عقيل ذلك التاجر السائح انه اتفق له فى إحدى سياحاته ببلاد الصين ان حاول الدخول فى مسجد من مساجد المسلمين فيها فوقف فى وجهه خادم المسجد وقال له ان بيوت الله لاتطأ أرضها الطاهرة قدم غير المسلم فاخرج

---

(١) اعنى بعض المآخذ

منها فانى لك من الناصحين قال ابن عقيل وقدساءته قولة الخادم ومن أين لك الحكم بعدم إسلامى ولم ترنى قبل اليوم قال سمعتك تتكلم بالعربيـة ولا نعهد فى بلادنا من يتكلم بتلك اللغة الا جالية السوريين من المسيحيين ولولا أن شهد بعض من كان حاضراً ممن يعرفون الرجل بصدق إسلامه لحيل بينه وبين الصلاة .

ولو كان نصيب المسلم السورى من التعليم نصيب المسيحى من أبناء بلده لرأيت منه رجلا اذا تعلم أفاد . واذا عمل أجاد

هذا صاحب طبائع الاستبداد وام القرى . بلبل أفلت من يد « الصياد » فغنى . وشم نسيم الحرية فتمنى . وهـذا صاحب المنار فاءت له الحرية بمذقة من الظل . وجادته سماء الاستقلال بقليل من الطل . فصاح صيحة فى خدمـة الدين اخترقت أحشاء الهند والصين . وذلك صاحب أشهر مشاهير الاسلام . غادر أرض الشآم فألف . ونزل في دار الأمان فصنف . ولـكن لأمر سبق فى علم الله قدر على المسلم أن يعيش مع الهمل . وأتيح للمسيحى أن يصبح من أهل العلم

والعمل .

ثم أمسك سطيح عن الكلام فقال له صاحبي السوري لقد ذكرت ياولي الله فى عرض حديثك أننا وان كنا من أهل العمل والنجدة . الا أن باخلاقنا بعض العهدة . فما عسى يكون ذلك النقص الذى يراه فينا اخواننا المصريون.

قال سطيح انني لا اكذب الله لقد اكثرتم من التداخل في شؤونهم فعز ذلك عليهم . من أقرب الناس اليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رحبا . وتفيأتم ظلالهم فأصبتم خطبا . ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلا . وحللتم معهم فى دور التجارة فقالو سهلا . ولو انكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم وداً صحيحا . وإخلاصاً صريحا ولكنكم تخطيتم ذلك الى المناصب فسددتم طريق الناشئين . وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين وأنتم تعلمون ان المصرى يعبد خدمة الحكومة فهو يصرف اليها همه . ويقف عليها علمه . فهي ان فاتته فاته الأمل . وفتر نشاطه عن السعي والعمل . وهو لايفتأ ينتظر الدخول فيها بقية عمره . انتظار القوم عودة الحاكم بأمره . فماضركم لو

جاملتموهم فرغبتم عن الانكباب . في دخول ذلك الباب أليس لكم عنه مندوحة وأمامكم وجوه الرزق كثيره. ومادتكم في الكسب غزيره . حببت اليكم الحركة وحبب اليهم السكون وجبلتم على الجد وجبلوا على المجون . فاصرفوا نفوسكم عن مزاحمتهم فى أعز الأشياء عليهم حتى تخلق الحاجة في نفوسهم شعوراً جديداً فيحس ناشئهم انه انما يتعلم لنفسه ولأمته لا لخدمة حكومته .

قال صاحبي وهل في ذلك ما يأخذه علينا الآخذون وأنت تعلم ان الحياة مزدحم الأقدام وملتحم الأقوام فان كنا قد أخطأنا فى فعلنا فهل أخطأت الحكومة فى قبولنا . وهل أصاب المصري فى بغضنا .

قال لقد أصبتم فى عملكم وأصابت الحكومة في قبولكم وما أخطأ المصري في بغضكم . أما أنتم فطلاب للقوت وطالب القوت ما تعدى . وأما الحكومة فضالتها عامل ينصح فى عمله فهي أنى وجدته طلبته وأما المصريون فلانكم غلبتموهم على أمرهم . بانتشاركم فى انحاء قطرهم . وهم يرون أن

فيهم الاكفاء . لحمل تلك الاعباء . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تجاوزون سته الآلاف عداً فأصبحتم اليوم وقد نيّفتم على الثلاثين.

قال الراوى

ثم سكت سطيح وسكت صاحبي فقلت ياوليّ الله أن عندى سؤالاً طالما بحثت فى جوابه فلم أقع فيه على الصواب قال قل وأوجز .

قلت كلما نظرت فى جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالا اذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهباً . واذا خطوا بها سطرت عجبا . ولو شئت أن أعد منهم عددت كثيراً هؤلاء أصحاب المقتطف ودائرة المعارف والضياء والهلال والجامعة وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها ولكننى كلما نظرت فى جالية السوريين من المسلمين لم أر بينهم غير البائع والسمسار . ورائض الخيل والجزار . فما علة ذلك التفاوت العظيم . والقوم يسكنون فى فرد اقليم .

قال علة ذلك وهم رسخ فى نفوس المسلمين. أن لا يدخلوا

أولادهم فى مدارس المسيحيين . ففاتهم بذلك تحصيل العلم ومات أكثر نفوسهم بحياة ذلك الوهم .

قلت لقد أمنت بحمد الله نفوسنا من دخول ذلك الوهم فأرسلنا من مصر فى هذا العام الى كلية واحدة من كليات المسيحيين ببيروت مائة وخمسين تلميذاً

قال لقد سلمت نفوسكم من الأوهام . وأصيبت عزائمكم بأنواع السّقام .أليس من العار أن تكونوا أكثر مالاً وأعزّ نفرا . ولاتجدوا فى مصر لتعليم أولادكم مستقرا وليست بيروت بأخصب من عروس النيل أرضاً . ولا بأوسع من ملك مصر طولاً وعرضاً.أيعجز فى مصرعشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية . ويظفر عشر معشارهم فى بيروت بنيل تلك الأمنية .

ثم أمسك عن الكلام وأخذ فى تسبيحه فأخذت بيد صاحبي وانطلقنا فى سبيلنا راجعين . ولما بلغنا قصر النيل تياسر صاحبي وتيامنت حتى اذا بلغت الدار . وعاودتني تلك الأفكار . قضيت الليلة على نحو ماقضيت به أختها السابقة

ولبثت بالمنزل الى وقت التطفيل ثم دعانى الموعد الى المسير فركبت نعلى . وأعملت قدمى ولكن كان النهار أسرع منى مطية وأحث سيراً . فادركنى الظلام قبل أن أدرك المقصد فنبهت العزيمة واحتثثت الأقدام حتى بلغت المكان المعهود وقد أجهدنى السير وكدنى النصب فاذا فيه إنسان ينوح من فؤاد مقروح فقلت ما خطبك أيها النائح فقال وهو يشرق بعبراته . وأنفاسه تتوقد بزفراته . ومن ياترى أولى منى بالبكاء. وقد أقصدنى بسهامه القضاء.كان لى أخ أسكن اليه وأعتمد بعد الله عليه.اذا أملقت واسانى.واذا تربت أعطانى أنام للمرض ويسهر عليّ. وأمشى للغرض ويجرى بين يديّ فما زلت مكفي المؤونة بكدحه . غنياً عن المعونة بنصحه.حتى انتويت به منذ عام . غاله روميّ بمديته . وحرمنى من حسن طلعته . بقر بطنه . وحضر دفنه . وحالت بينى وبينه حماية قومه

قال الراوى : ثم أمسك الحزن لسانه واسالت الذكرى نفسه فما زال بين الزفرة والشهيق حتى أشفقت عليه أن

يذوب كمداً فاقبلت انفّس عنه بسرد العظات وأدعوه الى الأخذ بالتأسي حتى رقأ دمعه . وهمدت نار أحشائه . ولما تماسك بعض الشيء أنشأت أقص عليه خبر سطيح فارتاح الى لقائه وقد حان الوقت فقمنا اليه وإذا به يقول

واجد موتور . وساهد مقهور . قد واصل النواح في الغدوّ والرواح .على دم هدر.وأخ قبر (أى فلان)ما دام امتياز الاجانب.فلغير المصري عزة الجانب . الروميّ يطعن بمديته .ويستظل بعلم دولته.والمصريّ يحمل القتيل .ويخضع خضوع الذليل . كأنما دية القتيل المصرى. كرامة للقاتل الرومى كما قال شاعركم

وهل في مصر مفخرة	سوى الالقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا	بمال غير مكتسب
وفِي الرومي موعظة	لشعب جد فى اللعب
يقتّلنا بلا قود	ولا دية ولا رهب
ويمشى نحو رايته	فتحميه من العطب
فقل للفاخرين أما	لهذا الفخر من سبب

أرونى بينكم رجلا ركينا واضع الحسب
أرونى نصف مخترع أرونى ربع محتسب
أرونى نادياً حفلاً بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب
حصائد السن جرّت الى الويلات والحرب
فهبوا من مراقدكم فان الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

ولو شاء لابس الرداء الأحمر. لدفع عنكم هذا الهواء الأصفر . وأمتعكم بالحياة فى أعطاف العيش الأخضر ولكنه ترككم نهباً للامتيازات . وغادر صدوركم ميداناً للحزازات . حتى تسأموا حياة الاذلال . وتسكنوا الى رجال الاحتلال . ولا تجدوا لكم من وقاية . في غير طلب الحماية وهنالك تتساوى الأقدام وينشر فوقكم علم السلام . وهذا

من دهاء القوم وسياستهم . وحذقهم فى الأمور وكياستهم وكما أن لكل أمة قسمتها من الفضيلة فلهذه الأمة قسمتها من الحزم وحصافة الرأى وبعد النظر فى العاقبة وما اجتمعت هذه الخلال فى أمة إلا وكانت خليقة أن يتناول حكمها سكان الكواكب لا هنود آسيا وزنوج افريقيا

وهم أهل سياسة وختل وقد بلغوا من كليهما كوكبيهما أما سياستهم فهى أشبه شيء بالكهرباء تدرك العين فعلها ولا يدرك العقل كنهها . يعنعنونها ويحكمونها ويطلونها بعقاقير يعرفونها ثم تزف الى الناس فلا والله ماينفذ فيها ذكن (١) الفطن ولا يحيط بها دهاء الحوّل (٢) فلولا التقى لنحلناهم (٣) علم الغيب وأما ختلهم فبيناهم ضعاف يغضون للخطب اذاهم أشداء ركابون للهول فهم أشبه شيء بالخمر ضعيفة فى الكاس شديدة فى الرأس . ولهم نظر يشف له كل شيء كأنما قد جمعت أشعة رانجن من أشعته وإرادة سخر له البخار فى

---

(١) الفراسة

(٢) الداهية الخبير بتحويل الامور (٣) نحله الشيء عزاه اليه

البحار كما سخر الريح لسليمان وهم إذا دخلوا قرية جعلوا أعزة أهلها أذلة وكان لهم فى اجتذاب ثروتها كياسة الاسفنج فى اجتذاب الماء مع ذلك الرفق والسهولة .

ولما دخلوا مصر دخول الشتاء على الشجر (ويا ليت طريقهم كان على وادى التيه يوم دخولها) اذا أهلها فريقان فريق نظر الى مساويهم بعين الأرمد فملأ ماضغيه بمحاسنهم فكان مثله وإياهم كالظلام والنار . يخفى دخانها ويبدى سناها وفريق ركب متن الغلواء فى ذم افعالهم حسنة كانت أو سيئة فكان مثله وإياهم كالانسان والزمان لا يشكر إذا أقبل ولا يصبر إذا أدبر ...

ومن تأمل فى رقعة شطرنج الشرق ورأى اليدين اللتين تجولان فيه وعلم أن الأولى تديرها الأناة السكسونية وأن الثانية تحركها الخفة الفرنسية حكم بالفوز للتى يجب أن يحكم لها به كل من فرّق بين عاقبة البدار تخالطه الخفة وعاقبة الريث تخطئه الغفلة .

ثم أمسك عن الكلام وأخذ فى ما كان فيه فأنصرفت

بصاحبي وجعلت أتحرّى مسرّته وأتوخى تسليته حتى بلغنا حيث نفترق فعطفت يمنة وعطفت يسره وما أنا إلا أن خطوت فى طريقي بعض الخطوات حتى لمحت شيخين يمشيان على مهل فقلت أدانيهما فلعلى أسمع منهما مايذهب بذلك الهم الذى حملته من حديث صاحبي الموتور فأسرعت الخطى حتى سرت على مسمع منهما فاذا أحدهما يقول للآخر لقد أفاض الفلاسفة فى تعريف السعادة وتفننوا فى تصوير اللذة ولكنى لم أجد فيهم من نفذ فهمه الى حقيقة ذلك التعريف. جهلوا أن السعادة كل السعادة فى شياخة السجادة وأن أسعد الناس حالا . وأرخاهم بالا . جالس فوقها . يجرى رزقه من تحتها . فهي الجنة التى تجرى من تحتها أنهار النذور والكنز الذى لاتفنى ذخائره أمد الدهور.

وأسعد من هذا الحي ميت يسخر له الله من يبنى على قبره قبة عاليه. ثم يدعو الناس الى التبرك بتلك العظام الباليه فتجيء سعادته فى مماته . على قدر شقائه فى حياته . وتطير بذكر كراماته الانباء . وتحسده على تلك النعمة الأحياء

حتى يقول فى ذلك قائلهم

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف ترزق الأموات

من لى بحظ النائمين بحفرة
قامت على أحجارها الصلوات

يسعى الأنام لها ويجرى حولها
بحر النذور وتقرأ الآيات

ويقال هذا القطب باب المصطفى
ووسيلة تقضى بها الحاجات

قال الثانى : لقد صدقت فى تعريفك . وأنصفت فى وصفك . ولكنى أعرف للسعادة منهجاً آخر قد سلك فيه بعض الأقوام . فأصبحوا أسعد الأنام . ألم تعلم وفقك الله ان السعادة كل السعادة فى الوصاية على اليتيم . وفى النظارة على وقف حبس على العظم الرميم . يأكل الأول ماشاء ولا محاسبه . ويلتهم الثانى ماأراد ولا مراقبه.

وانى أعرف فى مصر قوما قد احترفوا الوصاية على

الأيتام فهم كلما حدث يتم بالبلد رشحوا أنفسهم لتلك الوصاية وعملوا جهدهم للوصول الى هذه الغاية .

قال صاحبه صدقت يا أخى ولكن أتعرف السعيدة من النساء كما عرفت السعيدة من الرجال .

قال السعيدة من النساء من سهلت لها الاقدار فأصبحت تدعى شيخة الزار فهى تملأ يديها ذهبا. وبيتها نشبا . وترفل فى الحرائر . من هبات الحرائر . ورأس مالها فى تلك التجارة رقية باسماء بعض العفاريت الطياره . تدخل على المقصورات فى القصور . والمخدورات فى الخدور . فتفتق بطبلها طبل آذانهن . وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن . وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن .حتى اذا امتلكت منهن الوجدان .وصار لها عليهن أي سلطان . حكمت فيهن حكم المنوم البارع . على النائم الخاضع .

ولما انتهيا من تعريف السعادة وانتهيت الى دارى غادرتهما يضعان من تعاريف الاشياء ما يرسمه لهما الخيال وتملى عليهما الآمال . فدخلت الدار وروحى مجروحه بشكوى ذلك

الموتور فمازلت أفكر فى آلام الشرقى وشقاء المصرى . حتى ضاق الصدر . وعزب الصبر فقمت الى ربيع الأرواح ومسرح النفوس وأعنى به اللزوميات فطويت بفتحه كتب الأوهام . ومحوت بسطوره سطور الآلام . وجعلت أطالع حتى تبينت الخيطين . وميزت مابين الفجرين فحن الجنب الى المضجع ومالت العين الى الهجوع فنمت ماشئت وانتبهت وقد اكتهل النهار فأصلحت من شأنى وخرجت وأنا على غير عجلة من أمرى لفسحة الوقت وبعد ساعة اللقاء فمشيت مشية المتفرج حتى بلغت المكان المعهود فاذا فيه انسان تنطق معارف وجهه (١) عن ما أنحت عليه ضلوعه من سأم العيش وضجر الحياة فدانيته وحييته فردالتحية بأحسن منها فقلت له مالى أراك هكذا كاسف البال . سيء الحال . ومالى أرى فى عينك أثر البكاء . وألمح على وجهك غبار الشقاء فقال وهو يخفى من شجونه ويغيّض من شؤونه

إنى امرؤ خفيف الحال ثقيل الاعباء رزئت بفقد أبى

---

(١) تقاطيع الوجه

قبل أن أبلغ الغاية التي اليها مدى أملي وأمل الأهل والأقارب فانقطعت عن الدرس في مدارس الحكومة لقصر يدي عن بلوغ نفقة التدريس التي اشتطت فيها فأصبحت عيالاً على أهلي ولبثنا نعيش جميعاً من فضلة كانت لنا حتى أمسينا ذات ليلة ولم نجد ما نستصبح به في الظلام فكرهت أن أجمع عليهم بين خفة الحال وثقل وجودي بينهم فخرجت أقصد وجوه الرزق لعلي أصل الى عمل أكسب منه ما أدفع به عني شرة العوز وذلة السؤال فأخطأني التوفيق لأنني لم أكتب من أهل الشهادة فما زلت أنظر في وجوه الأعمال وأتبصر في أيها أقل مؤونة وأكثر ربحاً حتى فتق لي الذهن ان القي بنفسي في غمار المحررين وان أنشئ صحيفة أسبوعية فصحت عزيمتي على الدخول في زمرة الكتاب وان لم أكن منهم وأقدمني على ذلك ما أراه كل يوم من ترامي الناس على احتراف تلك الحرفة وغفلة أهلها عن الذود عنها حتى عبث بها الدعي وغض منها اللصيق ولما طوعت لي النفس ذلك أصدرت الصحيفة

وجعلت اكتب فى الفضيلة وأدعوا الناس الى الآخذ بها وأستعين بما سطره الاول وجرى عليه الأخير واستمد من بطون الكتب احكم الامثال وامثل العظات واكدّ ذهنى فى الاستنباط وأنصب بدنى فى السعي وأغشى الأدباء فى دورهم فأطلب الى هذا مقالة فى الأدب والى ذاك كلمة فى الفضيلة حتى فاضت أنهار الصحيفة بالنصائح وجرى تيارها بالملح والطرائف ولكن فاتنى أن أنظر نظرة فى أخلاق الأمة التى اكتب لها وأن أجول بالفكر جولةً فى وجوه عاداتها فلم تنفق لذلك سلعتى . ولم تنتشر صحيفتى فجعلت أبحث عن علة ذلك الكساد وعدم تنفيق تلك السلعة حتى اهتديت بعد كدّ القريحة الى أن ذلك راجع الى فساد الأخلاق وان العامة قد نامت عنها وغاظها فيبس ما بينها وبين الفضيلة وأخصب ما بينها وبين الرذيلة وذكرت قول ذلك الشيخ الحكيم « هلاك العامة فيما الفت » فوددت لو اننى كنت من رجال العلم وفرسان البيان فأشن الغارة على تلك العادات والأخلاق وأشك باليراع اضلاعها حتى أراها تأنق

لغير المجون وتأبه لغير السباب ولكن حال بيني وبين ذلك قصر في الباع . وجفاف في اليراع . وخلة [١] أشكوها وحياة استمرها [٢] فقلت لنفسي أيها النفس لقد أعذر [٣] صاحبك وما قصر فأنت اليوم بين أمرين اما الفضيلة والنعش . واما الرذيلة والعيش . وكانت من غير تلك النفوس المطمئنه . التي بشرها الله بالجنه. فشمست [٤] عن الأولى وسكنت الى الثانية فما زالت تأمرني بالسوء حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص ومستناما للعيوب وأصبح يراعي وقد استمد من لعاب الافاعي لعابه . واستعار من كتاب المسامير سبابه فما زلت أطعن على زيد لاجتعل [٥] من عمر وأغض من خالد لأشد من بكر حتى زل الرأي وعثر القلم فأصبحت غريم الحكومة وخوصمت الى المحاكم فأمسيت مخصوماً [٦] وبت وقد اصطلحت علىّ الخطوب . وطولبت بالتكفير عن

(١) الخلة الفقر (٢) استمر الشيء اذا وجده مرّاً (٣) اعذر الرجل اذا جاء بالعذر (٤) شمست أي نفرت (٥) أخذ الجعل أو الجعالة (٦) مغلوباً في المخاصمة .

الذنوب . بأن أدفع عشرة ذهبا . واتخذ لى غير الصحافة سببا . ومن أين لى أسعدك الله ان أقوم بدفع هذا القدر من المال ولقد كنت كلما هممت بطبع الصحيفة اجمع من كل جيب من جيوب المشتركين قرشاً كما يجمع العامل فى المطبعة من كل بيت (١) حرفا

لذا ترانى ضيق الصدر لضيق ذات اليد ولقد أعطيت الله عهداً ان أنا خرجت من هذا المحذور كفافاً لأحطمن هذا اليراع الآثم ولأنبذن تلك الحرفة التى اضطرتنى الى التحام الأعراض والميل مع الأغراض ثم رفع يديه ضارعاً الى الحق وقال اللهم ان كنت تعلم اننى دخلت فى هذه الحرفة كارها وسرت فى تلك الطريق مغلوباً على أمرى فنفس كربتى وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين

فقلت له وقد أدركتنى رحمة عليه أراك قد خاصمت نفسك الى نفسك فحمدت مغبة الخصومة ورضيت حكومتك عليك فلا تجزع بعد ذلك فانه لا شىء أمحى للخطيئة من التوبة

---

(١) البيت هنا بمعنى الخانة

يظهر أثرها في نفس الخاطئ واني أرى في نفسك وأتبين في وجهك أثر ماضيك ولا أعلم فيما أرى شيئاً هو أبلغ في النفوس من يقظة الوجدان وحياة الشعور فان كنت قد صدقتني فيما قلت وكان لسانك شاهداً عدلاً على قلبك فأنت حقيق أن لاتعود الى ما أوضعت فيه من الجهالة وخليق ان لا يفتّ في ساعدك ماوصل اليه أمرك من الفشل فلا يكبرن عليك أمر الغرامة فما هو ببالغ من نفسك ما بلغته أنت منها وهلمّ بنا الى سطيح يحدثك بما تئول اليه حالك ثم حدثته حديثه فلبث ينتظر معى الآية فلما لاحت أخذنا طريقنا الى سطيح واذا به يقول

ظالم مظلوم . ولائم ملوم . تزيى بغير زيه . وأقام في غير حيه . فأصابه ما أصاب الشرقي . وقد نزع الى تقاليد الغربي فأصبح معنياً بهذا البيت . وأحسبه من شعر الكميت

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها

ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

أى فلان ان للصحافة رجالا . وللسياسة أبطالا طرّقوا[1]

---

(١) جعلوا لها طريقاً

لها الى الضمائر . وتناولوا بها ماوراء السرائر. فسددوا الكلام كما تسدد السهام. وبلغوا بالمقال. مالا تبلغه النصال يعجبونك[٢] فتعجب . ويستغضبونك فتغضب . فهم ملوك الافكار ينقشون فى النفوس . مانقشوا فى الطروس . ويودعون فى الصدور. ماأودعوا فى السطور. وهم كما قال صاحب كليلة (يحقون الباطل ويبطلون الحق كالمصور الذى يصور فى الحائط صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) فأين أنت من رجال اذا استلوا أقلامهم ثلوا العروش الراسية .واذا أرسلوا بيانهم عطفوا القلوب القاسية . تجرى على أسنة أقلامهم أرزاق البائسين . وتسبح فى قطرات مدادهم آمال الراجين تبتدر الأسماع مايقولون . وتنهب الأبصار مايكتبون .فما أنت ياولدى فى الرأس منهم ولا الذنب . ولا علمك من ذلك العلم ولا أدبك من ذلك الأدب. ولكن تأنق الشيطان لك فى تزيين الضلال . والقى فى أمنيتك ان تصبح من رجال هذا المجال .فساقك الي نحسك ونكسك

---

(٢) يطلبون منك ان تعجب

ووجد له منك معينا على نفسك . فأخرجت للناس تلك
الصحيفة . ثم جعلته لك فيها خليفه فما فتئ يملي عليك . وهو
جاثم بين كتفيك . حتى أصبحت أشد سواداً من صحيفة أبي لهب
وأظلم ممن افترى على الله الكذب . فأتعبت الكرام الكاتبين
وأحرجت الكتبة الراشدين . وشد منك اقبال العامة
وسكوت الخاصة . وشاركك القارئ فى آثامك . وافتتن
المصري بكلامك . والمصري مفتون . بحب الهزل والمجون
فهو أين حل . له ولي من الذل . وأين كان . له قسطه من
الهوان . قد سكنت فى نفسه الهيبه . واقترنت بأعماله الخيبه
تلك التى استعاذ منها السليك العدَّاء . حين دعا ربه بذلك
الدعاء : اللهم انك تهيئ ماشئت لمن شئت . اللهم انى لو كنت
ضعيفاً لكنت عبداً ولو كنت امرأة لكنت أمة اللهم انى أعوذ
بك من الخيبة . أما الهيبة فلا هيبة . وكذلك أنت قد خاب
أملك . وخانك عملك . وتعذر عليك التماس الخلاص . وحق
عليك بما قدمت يداك القصاص

ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبي انى أتيت تائبا وفى

الحق راغبا . وما كنت لولا الحاجة بخابط في تلك الضلالة لولا انى رأيت القوم يركبون تلك الطريق فركبت مركبهم واقتفيت أثرهم ولا علم لى بخشونته فما زال يستدينى فيه الشيطان حتى ضللت مع الذين ضلوا من قبل وما انا فى ذلك بأول الخاطئين

قال سطيح أما اقتفاؤك آثار القوم . فانت فيه الحقيق باللوم . فما الذى غبطت من حالهم . حتى اقتديت بأعمالهم على الكدية والسؤال . وفيها ذل الرجال . أم على السجن وفيه يقرع السن . أم هاجت حرصك تلك الأتاوه . التى ضربوها على أهل الغباوه . فاصبحت حمدة [1] لمن أعطى وان كان لئيما . لمزة [2] لمن منع وان كان كريما . وأما اعتذارك بالحاجة والاملاق . فى الهبوط الى تلك الاخلاق . فعذر يدفعه الواقع . ولا يستأذن له على المسامع . فكم فى هذه العشرة الملايين . من صاحب حاجة أو مسكين . فما لهم لم

١ الحمدة الذى يبالغ فى حمد الناس بما ليس فيهم

٢ واللمزة الذى يسعى بالنميمة فى الناس

يشاركوك فى أمرك . ولم يعتذروا للناس بعذرك . فان قلت أنهم لا يحسنون التحبير . ولا يتقنون التحرير . فكلكم سواسيه . فى البحر والقافيه . ليس منكم رجل رشيد . ولا فيكم كاتب مجيد . ولكنهم علموا أقدارهم . فلم يتعدوا أطوارهم . وجهلت قدرك . فتعديت طورك . وأما التوبة التى تزعم انك تبتها . وبالندامة على مافرط منك اتبعتها . فهى ان كانت نصوحا . فقد بلغت بها ثمنا ربيحا . ولا تلبث ان تقفك على سبيل الكسب من الحلال . وتحرف بك عن طريق الغيّ والضلال .

ثم انقطع الصوت فقلت الا يحدثنا وليّ الله عن تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها فذهبت فيها الظنون مذاهبها وركبت الأوهام مراكبها ثم اسكنوها فى غير مغناها وأرادوا منها غير ماأرادت منهم فذلّت بهم وذلّوا بها وكان ذلك علة هذه الفوضى التى تراها فى الصحف وذلك الفساد الذى سرى فى الاخلاق ولولاها لما هبط ذلك الواقف بجانبي الى حاله تلك من سوء المنقلب وشر المصير

قال عن الحرية سألت . وعلى الخبير سقطت . اعلم ياولدى انها معنى الوجود وملاك الحياة فى فقدها سجن النفوس وعقال العقول وقيد الأفكار وما امتحنت أمة بمحنة هى أقتل لها من فقد الحرية وخمود الشعور وأنى أراكم على ماأنتم فيه من الضعف والتقاطع قد امتعكم الله بحرية الحياة فامسيتم تتقلبون فى نعمة لم تعرفوا لله حق الشكر عليها

اذا ألف الشيء استهان به الفتى
ولم يره بؤسى تعدّ ولا نعمى
كأنفاقه من عمره ومساغه
من الريق عذبا لا يحس له طعما

ألا تنتشرون فى الارض فتنظروا حال غيركم من الامم الاسلاميه التى سلط الله عليها ماسلط عليكم . تالله انكم لتجدونهم بحسرة النظر الى ابتسامة من ثغر تلك العروس التى جلاها لكم الاحتلال فجهلتم قدرها . ولم تدفعوا مهرها فلما علم منكم ذلك أقام لكم مكانها عروسا من الشمع يحاول

إيهامكم بوجودها كي تخدعوا بالنظر اليها كما خدعتم نيلكم من قبل بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين

فكان مثلكم في ذلك مثل السجين فى مكان غاب سجانه وفتح بابه فهو كلما هم بالانفلات من ذلك السجن نظر في رجله قيدا من الخوف ولمح على الباب حارسا من الوهم أف لكم لقد منّ الله عليكم بقسم من الحرية لو قسم على المسلمين فى الارض لو سعهم فخرجتم به عن أفق الحرية الشرعية ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية بل رسمتم للحرية تعريفا أنكره الشرع و تسخطت له الفلسفة

عرفها الاول فقال انها تكون في حفظ الدين والعرض والشرف والمال واوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف فقال هى ان يكون المرء حراً فى عمله ورأيه على شريطة ان لا يدعو ذلك الى أذى غيره . فما أعجبكم الاول ولا راقكم الثانى علي ما فيه من التسامح بل زعمتم ان تعريفها الشافى هو ان يعمل المرء ما شاء ان يعمل ويرى من الرأى ماشاء ان يرى وأن سبيله فى ذلك أن يسطرد به جواد الأرادة المطلقة في

ميدان الشهوات لايبالى داس به آداب ذلك المجتمع الانسانى أم تخطى أعناق الفضائل

قلت قد علمت ان الذى نحن فيه لم يكن من الحرية فى شيء فما رأى وليّ الله فى تلك الصحف التى باتت تنبح بغير فرقان على صاحب الدار والغريب . وتقرض بلا مبالاة عرض البعيد والقريب أيرى فى وجودها ضرراً محضاً او منفعة خالصة أم هى كالخمر فى حاليها قد جمعت بين الاثم والمنافع . فوجودها بيننا ضار نافع

قال سطيح لقد نظرت قبل اليوم فى هذا السؤال . وتبينت فيه الهدى من الضلال . فألفيت فيها شراً قائما وخيراً جاثماً . فرأيت أن أزن الاثنين . فلما حملتها الى الميزان ونظرت فيه بعين العرفان شالت كفة النفع والخير . ورجحت كفة الشر والضير

فقلت زدنى بارك الله فيك . واسمعنى تأويل ذلك من فيك

قال اعلم انه مامن شيء الا وفيه منفعة ترجى ومضرة

تخشى أما وجود النفع فى بقاء تلك الصحف فهي عديدة الا انها لاتكاد تجلى لغير علماء العمران . والباحثين فى ترقيـة شؤون بنى الانسان

فمنها ان فى بقاء تلك الصحف على الحال التى هي عليها عنوانا على وجود الحرية فى البلاد التى تنشر فيها فاذا قـدم عليكم قادم وقرأ مايكتب فى تلك الصحف كائنا ما كان عـلم انكم تتقلبون فى نعيم الحرية . وان جهلتم انتم قدرهذه المزية

ومنها أن فيما تكنيه مزدجراً للناس فانك لتجـد من الموضوعات فى تلك الصحف الصغيرة ، مالا تجد بعضه فى أمهات الصحف الـكبيرة . هذه بما فى نفسها تصرح ، وتلك لاتكاد به تلمح ، تكتب الاولى مايقع للغني والفقير .وتسطر مايحدث للـكبير والصغير . وتأبى الثانية الا ان تراعى المقام وتحجم فيما يقـع من الحوادث عن الـكلام . إما لصلة تمنعها او لرهبة تقطعها

ومنها انتشار اللغة فى الجملة بانتشار تلك الصحف فانك لاتعدم أن تجد فى صحائف الاسبوع أسلوباً رقيقاًومعنى دقيقا

يعز وجودها في صحائف اليوم لاشتغال أهلها بتسقط الاخبار وضيق وقتهم عن التأنق فى الاساليب. والتماس الشائق من التراكيب . اما اصحابنا فلهم من فسحة الوقت ما يكفى لانتقاء اللفظ واختيار الموضوع فاذا شاءوا المدح عرضوا الفاظ اللغة ونبشوا بطون الكتب وقلبوا أحشاء القواميس ثم استخرجوا من الالفاظ أحلاها وأطلاها . ومن المعانى أسماها وأغلاها . وصاغوا من كليهما مدحة تهز الممدوح هزاً وتبز منه المال بزاً . وهم اذا خلوا الى شياطينهم وارادوا القدح فقل أعوذ برب الانس والجان . من شر ذلك اللسان

أما وجوه المضرة فى بقائها فقد اصبحت شيئا يحس وأصبح مثلها كمثل الهواء فقد كنا نشعر به ولا نراه حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى همت الأيدي بلمسه وتلون حتى وقع من النظر تحت حسه .

فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال فأقاموا لها سوقا فرشت فيها الصحف وركزت الاقلام وعرضت للبيع أعراض الناس فتراهم يجلسون للمساومة فى تلك الأعراض

ويأتى حامل الضب (١) لأخيه فيساومهم فى تمزيق عرض من أراد ويشهر ذلك فى المزاد

ومنها ديب الفساد الى اخلاق العامة لكثرة مايقرأون ويسمعون من الفاظ السباب واذا فسدت الاخلاق في أمة فقد فسد فيها كل شيء

ومنها دخول السقاط من القوم في زمرة المحررين اللهم الا نفر من أنصار الفضيلة ذهب صرير أقلامهم ضياعاً فى وسط تلك الضجة القائمة وهذا قليل من كثير فانصرف ياولدى الآن فقد قطعتنى عن ذكر الرحمن

فانصرفت بصاحبي وقد أخذت منه العظة . وتمشى فيه الاعتبار حتى اذا بلغنا حديقة الحيوانات قلت لصاحبي هذا قصر اسماعيل الذى يقول فى وصفه صاحب عيسي بن هاشم

وصلنا الى قصر الجيزه ومتحف الآثار . وملتقى السيارة من سائر الاقطار فرأينا روضة تجرى الانهار من بينها . كأنها الجنة بعينها . وقصرا يقصر عنه الطرف . كما يقصر عنه الوصف

---

(١) حامل الضب اي حامل الحقد والضغن

فأخذنا نرتاد خلاله . ونتفيأ ظلاله . وقد نظرنا الاسود
مقصورات فى المقاصير . والأساود مكفوفات فى القوارير
ورأينا النمور . فى الخدور . والرئال . فى الحجال . والذئاب
فى القباب . والظباء . فى الخباء . ولما رأى الباشا الارض منضده
مرصعة مزرده . حسبها أرضاً مفروشه . ببسط منقوشه
وأشكل الامر عليه . فهم بخلع نعليه . فقلت له طريق معبد
لافرش منجد . وحصباء ومرو . لابساط وفرو . قال لمن هذه
الجنان وكيف يسكنها الحيوان . وماعلمت أن الأسد الضوارى
تسكن مغانى الجوارى . وان ساكنات البيد . تلعب فى ملاعب
الغيد . فقلت بيت اسماعيل طالما كانت حجراته مطالع للأقمار
ودرجاته منازل للاقدار . كان اذا نادى صاحبه ياغلام شقيت
أقوام وسعدت أقوام . ولبى نداءه البؤس والندى . بأسرع
من رجع الصدى . هنا كان يفصل الامر ويحكم . وينقض
الحكم ويبرم . وكان من احتمى بظل هذا الجدار . تحامته
غوائل الاقدار . هنا كانت فرائد القلائد . من أجياد الخرائد
تختلط بمنثور أزهاره فترصع لجين أنهاره . هنا كانت تتناثر

الجواهر من قدود الحسان . فتشتبه بأثمار الأغصان. هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد . فتجاوبها الوُرق على الأفنان والاعواد . فأصبح حديقة عامه . وموطئاً للخاصة والعامه . وأصبحت أرضه تكترى . وجنى أشجاره يباع ويشتري . ودَوَى فيه صياح النسور وزئير الأسود . وعواء الذئاب وهمهمة الفهود . وزال ما كان فيه من عز وطَول. ومجد وصول . وأيد وحول. وصدق الكتاب لحق القول

في هذه الدار في هذا المكان على

هذا السرير رأيت الملك قد سقطا

وقصصت على الباشا قصة صاحب القصر . ومليك ذلك العصر . وما كان فيه من الجد الصاعد . والبخت المساعد وما صار اليه من نحوسة سعده . ثم سكني لحده . وبعد ان ذاق في هذه الدار دار الفناء . مثل عذاب تلك الدار دار البقاء

نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا

برغمهم فاذا النعماء بأساء

وما انتهيت من هـذا الحديث حتى انتهينا الى حيث نفترق فقصدت دارى وقصد داره ولكننى استشعرت بعد فراقه ميلا الى السهر فعطفت على أحـد الأندية وانتحيت ناحية وجلست وما كاد يحتوينى المكان حتى طلع على النادى ثلاثة من الشبان شممت من أردانهم أرج الحسب والنسب وعرفت فى وجوههم نضرة النعيم فـدخلوا وهم كأنهم روضة تمشى وجلسوا وما شككت فى أنهم من أقران الثريا وكانوا بحيث أسمع مايقولون ثم صاحوا بالخادم فأقبل مهرولاً فتقدموا اليه بطلب كاسات الراح فانطلق يعدو وما لبث الا ريثما عاد يحمل كؤساً من البلور ملؤها ذهب سائل أو أصيل جامد فصففها أمامهم وحفها بأطباق النقل وطاقات الزهر فقلت فى نفسى لقد أرانى فى حان وما كنت لأعدّ نفسى من أهلها فهممت بالانصراف ولكن أمسكنى حب الاطلاع على ما سيكون من أمرهم وما يدور من الحديث بينهم فلبثت أسمع وأرى واذا بهم قد استرسلوا فى الأنس وتبسطوا على السرور وكانوا كلما أفرغوا كؤوسهم امتلأت

نفوسهم طرباً وتهللت وجوههم فرحا فما زالوا يستحثون الكؤوس الى أفواههم بحادى الغناء حتى خلعوا رداء الأنفة وطرحوا مطارف الاحتشام فقام أحدهم وقد علت الخمر ذؤابته ورنحت أعطافه وقال أخشى ايها الصاحبان أن تميل علينا هذه الصفراء بخديعتها وختلها فنقع فى مثل ماوقع فيه ذلك الشاعر الفارسى الذى يقول . مازلنا نشرب الخمر حتى بحنا بأسرارنا فلما رأت منا ذلك أشفقت على نفسها من أن نبوح بسرها فأمسكت ألسنتنا . فأجابه أحد صاحبيه وما عساك تخشى منها فهب أنها دبت منك الى موضع السر فهل لك دوننا سر تطويه . أو شيء تخفيه . قال كلا فاننى لم اكتمك مذ صحبتك شيئاً من أمرى اللهم الا واحدة

قال وما عسى تكون . قال إنى أغبطك على أبيك وأتمنى أن أكون فى موضعك . قال صاحبه وقد عراه الدهش وما الذى غبطت منى حتى بلغ بك الامر الى التمنى ولا أراك دونى فى شيء من الاشياء فأنت بحمدالله في بشاشة من العيش ورخاء من البال .

قال تعلم أن أبي مدير وأن أباك مستشار بمحكمة الاستئناف قال علمت ذلك وما غاب عني أن أباك أعلى من أبي منصباً . وأكثر مرتباً . ينقد أبوك في كل شهر مائة ذهباً وينقد أبي دون ذلك

قال أراك تداجي فى القول . وتتغابى عن الفهم وأنت تعلم انه مامنّ الله على خلقه بنعمة هي أولى با لشكر وأحق بالذكر من نعمة الأمن فقال تعالى معدداً آلاءه على قريش (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) فجعل سبحانه الأمن نعمته الكبرى ومنته العظمى فمن بات منا آمنا فى سربه كان حقيقاً أن لا يغفل طرفة عين عن الشكر

وأبوك ينام ملء جفونه لا يبالى أقبل المستشار أم انعقد مجلس النظار فقد تخطاه العزل . واخطأته عاديات النقل أما أبي فهو على منصبه الكبير . وأجره الكثير . يابث الليل والنهار . فى خوف من المستشار . حتى أن أمثاله من المديرين الذين لم تشرق عليهم الشمس فى بلد الا وتغرب

عنهم فى آخر ليتركون أثاث منازلهم ورياشها مطوقة بالحبال لكثرة مايؤمرون بسرعة التحول والانتقال . لذلك ترانا لا نحل فى بلد الا ونحن من أمرنا على سفر . ومن غضب المستشار على حذر . كأنما عنانا ابن الوليد بقوله

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة

مخافة الدهر أن يؤتى على عجل

هذا بعض مانحن فيه أفلا أغبطك بعد ذلك . وأتمنى حالا كحالك

ثم انتثر بعد ذلك عقد المجلس فمضى كل لوجهه وغادرت المكان على أثرهم وتيممت دارى فلبثت فيها حتى حان الموعد فخرجت وما زلت أمشى حتى اشتمل عليّ الليل. وأسمع صوتاً فاتسمته فأرى صديقاً لى يتغنى بشيء من الكلام المقفى الموزون فاجلس على كثب منه وهو لا يرانى وقد شجانى حسن صوته وكاد يلهينى عن الموعد لُطفُ ايقاعه فألبث حتى يأتى على نشيده ثم أتراءى له فأحييه ونتبسط على الحديث فاسأله لمن الشعر يافلان قال هو بعض ما أعبث به قلت لقد

أسمعتني منذ الليلة كلاماً لو نحلته ابن أوس ماشك سامعه في أنه من مختاراته فما لك تكتم الناس مثل هذا الشعر السري ولو أنك أذعته لغضضت به من كثير من أولئك الذين باتت تطن الصحف بذكرهم قال ليس من أمري المديح ولا سبيل الى أذاعته في تلك الصحف اذا أنا لم أسلك به في تلك الطريق قلت فان أعياك الأمر فما لك لا تجمعه في ديوان ثم تخرجه للناس كما يفعل الشعراء ممن هم دونك في منازل الأدب ومراتب القريض قال كان يكون ذلك حقيقاً بي لو ان من يقرأ الأثر في مصر يقرأه لذاته لا لذات صاحبه ونحن بحمد الله في بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب مالم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف حتى اذا ظهر أثره في الناس قامت تقرظه بصنوف المديح والاطراء وتنزل نفسها في الدعوة الى كتابه منزلة أولئك المبشرين في الدعوة الى دينهم

فلو بعث اليوم صاحب اللزوميات وحاول أن ينشر في تلك الصحف حرفا مما أخذه على الامراء وانكره على الكبراء لأبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكانا بين

جداول الأموات فضلا عن جداول الاحياء . ألم تر اليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد اسندت الى صاحبها من الالقاب ماتعجز صحف الاستانة عن اسناد بعضه الى جلالة المتبوع الاعظم وقد أدى فريضة الجمعة أو تحركت شفتاه بالانعام على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من المعجزات اللهم الا مايتباصر به علينا من تلك المعانى الغريبة التى ماسكنت فى مغنى عربى الا وذهبت بروائه

قلت حسبك لا تغضض من شاعر الشرق ولا تنتقص من أدبه فتالله انه لظريف الوزن لطيف القافية خاطره طوع لسانه. وبيانه أسير بنانه . كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه الا انه مكثار وقل ان يسلم المكثار من العثار فشعره كما قال الاصمعى فى شعر أبى العتاهيه. كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب

قال انى لا أرى رأيك فيه وفى مصر من لو انقطع لصناعة الشعر لوسع الناس احسانه فيه ولكن قد ثنى الله

عنان الكثيرين عنه اما لشرف يخشى عليه ان يغض منه واما لاشتغال بشؤون للحياة لاتقوم الحياة الا بها وصاحبكم بفضل ماهو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره فالعجب أنه لايجيد وأعجب منه أن يقال انه مكثار وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة

قلت لاتطل فى أمره الجدال فهذا الحكم منا على رمية السهم فان شئت غشيناه.قال ما أرضانى بحكمه ثم هم بالنهوض فقلت على رسلك حتى يحين الموعد فقد جعل لى آية للقائه ثم حدثته حديث سطيح وما كان من أمرى معه فارتاح الى لقائه ولما حان الموعد قمنا اليه واذا به ينادى صاحبى بقوله

شاعر عربى . وأديب سرى . طيب الله أنفاسه وازدهى السبق أفراسه . نهاز أذنبة الكلام . خلاب أفئدة الانام . قريب القلب واللسان . صديق الخاطر والبيان زوته عوائر الجدود . عن مظاهر الوجود . فزكا شعره ولم ينبه ذكره . ولو انصفه زمانه . لما خمل مكانه . أو لمحته القدره . لما حرم الشهره . أى فلان . إن ماخضت فيه من

أمر صاحبك مع ذلك الواقف بجانبك.فانتما فيه سواء.زلة فى الآراء.وانحراف عن خط الاستواء.أغرقت أنت فى القدح وبالغ صاحبك فى المدح . فخرجت بشاعر النيل عن افق الحسنات.وكاديسمو به صاحبك الى سماء المعجزات.ولو انصفتما لأنزلتماه فى برجه. وأركبتماه فوق سرجه

انه أرقكم طبعا . وأجملكم صنعا. فهو ان ركب الغزل والنسيب . كان كأنه يوحى اليه من قريب. واذا سلك سبيل المديح.فقد عجز عن وصفه سطيح .الا أنه ضيق المجال . وان كان واسع الخيال . يقع له المعنى الجليل . في سبحات الفكر الطويل. فيمسكه خاطره . وتحرص عليه سرائره . والمعانى كالظباء كثيرة النفار . شديدة الاحضار فهي أن لم تجد من نضارة الألفاظ خميلة تسنح فيها أو لم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها ذهبت عنها ان لم يضق بها المذهب وكذلك حالها فى شعر صاحبكم فهى إما نافرة واما حزينة باسرة ولو أنه منح من دقة المبانى مامنح من رقة المعاني فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذي

أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير
منازع قال صاحبي وهو يكظم غيظه انه لم يغادر معنى من
معاني العرب والفرنجة الا سلخه ثم مسخه فان كان الاسلوب
على نحو ماوصفت وكانت المعاني لغيره فما عسى يكون فخره
علينا وقد ذكر صاحب دلائل الأعجاز أن البلاغة لا تقع فى
اللفظ ولا فى المعنى ولكنها تقع فى الأسلوب فمن كان
أسلوبه يجري على غير هذا الحد كان خليقا أن لا يسمى بليغا
وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ غامض المعنى يحتاج الناظر
في كلامه الى تخوت الرمل وطوالع التنجيم وقد قصر همه على
اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى
أصبح بعضها علامة تدل على شعره وإن كان غفلا من ذكره
ولقد نظرت فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف
الأولين فهو لم يغادر معنى فى خدره الاسباه ولا لفظا فى
وكره إلا وأزعجه . الا ترثى بربك الى عظام ابى الطيب
وهي تئن فى قبرها على أبيات شادها صاحبها وخربها صاحب
الشوقيات . ولو كشف لك عن مجامع الأرواح فى عوالمها

لرأيت منها ثلاثا قد ضمها الحزن وجمعها الأسى ولوقع فى سمعك صوت ابى عبادة وهو يندب شعرا دخل عليه الافساد وأنين المتنبي وهو يبكى كلاما ذهب به المسخ وزفير ابن الاحنف وهو يتحسر على رقة لعبت بها يد السلخ

ومن نظر فى قول أبى الطيب (نود من الأيام مالا توده) وفى قول صاحبنا (يود من الأرواح مالا توده) علم أن الثانى اغار على الأول فسلبه مطلعا أبهى من مطالع الشمس ولم يقتصر على هذا السلخ حتى تخطاه الى المسخ فرفع لفظة الأيام من شطر بيت المتنبي ووضع مكانها لفظة الأرواح في شطر بيته ثم جعله مطلما من مطالع التهانى أنزل فيه ممدوحه منزلة عزريل من النفوس فانى لا أعرف احداً (يود من الارواح مالا توده) اللهم الا ملك الموت فهل بعد هذا نغفر له ضعف الاسلوب لما عساه يقع فى شعره من لطف المعانى وجلها على نحو ما سمعت

قال سطيح . انك لاتفتأ تتعقب سيئاآته وتحامى ذكر

حسناته فالك لا تذكر بجانب ذلك قوله فى هذا البيت الحكيم

فانما الامم الاخلاق مابقيت

فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

قال صاحبي لو شئت أن أضع بجوار كل سيئة من سيئاته حسنة من حسناته لنفدت الحسنات وأنا فى الربع الأول من ليل السيئات

قال سطيح انك ان أخذت عليه أخذه للمعانى فقد أخطأت مواقع الرأي فلو طلعت الشمس على جديد لكان صاحبكم خليقاً بما تقول ولكن الا ترى أن المعانى كالنقود تداولها الناس وليس عليهم فى ذلك من باس ولكن بعض ما أوتيه الرجل من الفضل أصبح داعياً الى حسده والوقوع فيه .

قال صاحبي . لو كنت ممن يعرفون الحسد لحسدت ذلك الذى يقول

أسمع فى قلبي دبيب المنى وألمح الشبهة فى خاطرى

ولكنى لا أنزل بنفسى الى حسد من يقول

مال واحتجب وادعى الغضب

بل أرثى له من التصاقه بمثل هذا الكلام

قال سطيح . وهذا نوع من انواع الحسد فانك تعمد الى ذكر شعر ملؤه الوهن والغميزة وتعرض عن ذكر ما هو رصين من شعره فتالله ان فى قوله

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب

وينصر دين الله ايان تضرب

وفى قوله

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

لآيات لقوم يعقلون

قال صاحبي . حسبي فيما ذكر وحسبك فيما تنكره عليّ من ذلك أن انشدك هذين البيتين ثم ذكر بيتين لا يحضرني منهما غير الشطر الأول

تلك القوافي التى شاهدت شهرتها

قال سطيح . صنع الله لك يافلان فانى أراك تستبطن أمره وتستقصي شعره ولكن هذا لا يعيب من لبث ما أدرى

كم سنة يضرب على وتر واحد فى الغزل والمديح وهو يأتى فى كل ضربة بنغمة جديدة فلو انك جئت بأطبع خلق الله على الشعر وكلفته ان لا ينظم ماعاش فى غير المدح لما غنى عن الظهير والمشير ولما جاء بأبدع مما يجئ به اليوم شاعر الشرق فاعلم بانه حقيق بالرئاسة عليكم وانه فى مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ورفعوها على ألسنة الاقلام فأن انكرته بعد اليوم فقد أنكرت نفسك وكذبت حسك فهو عميد رجال هـذه الدولة الجديدة فلا يكن مثلك واياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه

كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجد يتعسه الجد

فما ضركم لو تساندتم جميعا وانتم لاتجاوزن منازل القمر عداً فرفعتم من شأن هذه الدولة وحركتم من الخامدين وهززتم من الجامدين فانى أراكم بين متفصح على أخيه ومتنبل على قرينه وليس هذا صنع من يريد ماتريدون تحاولون رد هذا الدولة الى شبابها بعد ان خلا من سنها ولو لم يتداركها الله بذلك الافغاني لقضت نحبها ولقيت ربها

قبل ان يتعها بكم ويمتعكم بها. أدركها الافغانى ولم يبق فيها الا
الدماء فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها وشدت من عزمها
ادركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض الشيب فى سواد
الشباب فشاب قرناها قبل ان تشيب ناصية القرن الخامس
فسودت يده البيضاء ماابيضت من شعرها سود الليالي
وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها
وبدا صلاحها وقد كان الناس فى هذا العهد يدينون بالالفظ
ويكفرون بالمعنى فما زال بهم حتى ابصروا نور الهدى وخرجوا
بفضله من ظلمات القرون الوسطى وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه
فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين
المجال وجال كل جولته وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك
الفكر حتى أفضى الى حركة النفس وظهر اثر جمال الدين فى
النفوس العالية واصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعيه
فكان من ذلك ان انطوى اجل التقليد وأن بعث الله على
يديه ميت اللغة واحيي رفات الانشاء وغادر رحمة الله عليه
مصر ولم يضع لنا كتاباً نأخذ عنه أو مؤلفاً نغترف منه

ولكنه ترك لنا رؤوسا تؤلف وأفكاراً تصنف وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجود بنفسه خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الاثر على صفحات الصدور فان لم ترثوا عنا فى بطون الكتب فقد ورثتم عنا فى صدور الرجال فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم يغادر كلاهما مؤلفاً ولم يدع مصنفا فلولا محمد عبده ماعرف رجل الأفغان ولولا أفلاطون ما ذكر رأس فلاسفة اليونان

ولما سكنت أنفاس الافغانى بعد أن تجددت بذكره الانفاس خلفه حكيم الشرق فى دولته ووطن نفسه على المضي فى طريقته فاسمع الناس فى الحق وأسمعوه وأخافوه فى ذات الاله وخافوه ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ثم مضى لسبيله رحمه الله .

فتفتقت الأذهان وتطلعت العقول الى البحث وبرزت

اللغة من خبائها تجر مطارف آدابها وأطل علم الأدب (LITTERATURE) من مناره مشرفا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر. ونفذت أشعته الى السرائر. فنمى تحت نظره الشعور كما ينمى النبات جادته الشمس بالنظر. اوكسته أشعة القمر. فلطف من كثافة النفوس وهذب من مرارة الارواح حتى شفت الأولى وعذبت الثانيه وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الادب وعلمه

وأعلم ياولدى أن عز الامم موقوف على عز اللغات وأن حياة اللغات مستمدة من حياة آدابها فاذا ظهر علم الادب فى شعب كان ذلك آية لظهوره وعلامة على استعداده فهو الذى يهيئه لقبول أسباب الرقي والعمران ويعده لمساغ انواع العلاج ويروضه على احتمال المصاعب في سبيل المعالى. ألا ترى أنه يخاطب الشعور ويحادث الوجدان . فاذا خفق الاول خفقة حرك منه واذا اغفى الثانى اغفاءة شرد عنه ألا ترى أنه اذا تيقظ الشعور أحس صاحبه بالحاجة الى معرفة مايحيط به فهو يدفعه الى البحث وأكتشاف أسرار الكون ويدعوه

الى معرفة ماهية العوالم فلو انك جئت برجل هامد الشعور جامدالوجدان وحاولت أن تقنعه أن النـاس فى حاجة الى علم الـكيمياء مثلا لمـا وراءه من المنافع لنأى عنك بجانبه ورأى انك تحاول المستحيل وتدعو الى الباطل . كل هذا الرجل برهة الى علم الأدب حتى يتنـاول منه ماوراء الوجدان ثم إلْقَـه بعد ذلك فتالله انك لترى منه ما كنت تراه من نفسك. تراه مدفوعاً بقوة الشعور الى استنباط الوسائل والاستعانة بالعلوم والفنون على دفع اغارة النقص الذى أصبح يحس به فى نفسه وفى أمته

بعث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فى عهد كان ربيعا للغة وأدابها نضرت فيه الالفاظ وأورقت المعانى وقـد مات من أمة العرب كل شيء الا شعورها ولسانها.مات منها كل شيء ولم ينقصها من مواد الحيـاة شيء فجاء الـكتاب يخاطب منهم ذلك الشعور الحيّ ويكلم ذلك الوجدان اليقظ فسرت فى نفوسهم الدعوة سريان الـكهرباء ووقع منهم مغزى الآية فى الافئـدة قبل وقوع لفظها فى الأسماع فكان مثل

أحرف الكتاب وان جلت عن المثل كمثل احرف البروق
هذه مطيتها الأسلاك تطوف بها حول المحيط طواف الفكر
وتلك مطيتها الشعور يبلغ بها غاية النفوس قبل رجع البصر

صادفت الدعوة نفوساً غذتها اللغة وروتها آدابها فعرفت قدر الكلام وبالغت فى تكريمه حتى رفعته الى مواطن الآلهة وسجدت له سجودها للهبل الأعلى

صادفت نفوساً تملكها الوجدان فاصبحت ترقص لشطر البيت فهى ان شاء حملها الشاعر الى مواطن الفناء وان شاء وقف بها فى مواقف الفخار صادفت تلك النفوس فلم تصدف عن آياتها وكان الفضل فى ذلك للشعور الذى ولده فيها فهم أسرار اللغة واستمراء لذة آدابها وكان من أمر العرب بعد الدعوة ماقد علمت ولولا آفة اصابت لسانها وفترة أماتت شعورها لرأيت أبيض الغرب وأصفر الشرق وصيفين فى بيت ذلك الأسمر

هذا هو شأن الدولة التى أدعوكم الى تأييدها وهذا هو اثرها فى النفوس فلولاها مارفعت دولة فى الغرب رأسها

ولا خاف الناس بأسها . انظر نظرة فى تاريخ دول المغرب وامعن قليلا في البحث عن اسرار مجدها تجد سرّ ارتقائها في تضافر كتابها على بث روح التأثير فى نفوس العامة بما يزخرفون لهم من الأحاديث وقد ساعدهم على ذلك ان الناس هنالك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون فتتسرب الى نفوسهم معانى الشاعر وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وان كانوا لا يشعرون

خذ خطيبا ذلق اللسان كثير تزويق الكلام ملماً بالعربية. عارفا بالاعجمية. وتنقل به بين تلك الامم الواقف على أسرار لسانها ثم اندبه لان يقف وقفة ويخطب الناس وتفرس بعد ذلك فى وجوه السامعين وما يرتسم عليها من أثر تحرك النفوس وتنبه العواطف واحفظ ذلك فى نفسك ثم عرج به الى مصر ودعه يقف وقفته ويستجمع قوته ويخطب ما شاء من الصبح الى المساء وانظر كيف يختلف القياس. بين صنوف الناس . فلو انه نثر على رؤوسهم التنزيل . واتبعه بالتوراة والانجيل. ما حرك منهم جامداً. ولا نبه خامداً. واصل هذا البلاء

الذي استعصى معه الدواء . ان لهم لسانين قد تناكرا حتى
تنافرا اختصوا اولهما بالكلام. وجعلوا الثاني من نصيب الاقلام
فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذاك . ووقع حاملهما في سوء
الخلط والارتباك. فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر . وأشفقت
من العثار يراعة الناثر . اذا ارضي الشاعر لسان الكلام . اغضب
لسان الاقلام. واذا نزع الكاتب الى محاسنة العامه. جره ذلك
الى مخاشنة الخامه. دع ماتجنيه الصحف اليوميه. على لسان هذه
الامة العربيه. وما تدخله عليه من لفظ عامى. وأسلوب أعجمي.
حتى نعت اللغة نفسها على لسان صاحبكم حيث قال

أري كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يُدنيني بغير أناة
واسمع للكتّاب في مصر ضجّة
فاعلم ان الصائحين نعاتى
أيهجرنى قومى عفا الله عنهمُ
الى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى
لعاب الافاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الالوان مختلفات

فان لم تعاونوا على شفائها بعد وقوفكم على مكامن دائها فقد قضيتم عليها بالممات.وعلى أنفسكم بالشتات.وحسبك هذا من سطيح.فقد قطعته عن التسبيح

قال الراوى ثم انقطع الصوت فقمنا ثملين مما سمعنامن ذلك الوليّ وقلت لصاحبي وهو كالمأخوذ ماعسى يكون ظنك بصاحبك بعد اليوم قال لقد صدق سطيح فيما وعظ . ورحم الله عبداً اتعظ .فان دابرت اديبا بعدهافلست لأبى . واشهد الله انى وقفت يراعتى على التوفيق بين جماعة الادباء لعلنا نتساند جميعا على تأييد هذه الدولة التي لم تكد تدرج من مهدها حتى وقف بها الضعف على حافة لحدها ولو لم اكن خامل المنزلة بعيداً عن الشهرة لكنت أول الصائحين غدا بما وقع في نفسى من كلام هذا الوليّ الكريم ولكن من كان مثلى كان

خليقا أن لا تردد الصحف صدي صوته لعدم نباهة ذكره

قلت لقد أخطأت منافع الرأي فان خمولك يجعلك بمنجاة من الحسد والضغينة فاذا كتبت شيئاً لا تصرف الغيرة عيون القارئين عن الخوض فى جمال بيانه . وحسن برهانه. وربما بلغ خمولك من الناس مالا تبلغه نباهة غيرك فلا تغتبط نبيها على منزلة نالها بعد جفاء المضجع وإنصاب البدن . فان بجانب اللذة التي يشعر بها عند التنويه باسمه آلاما يضيق عنها مدى الصبر وانما تحس بذلك كل نفس أخذت قسمها من الشهرة ولو أنك وقفت على مايكابد النبيه من حسد المعاصرين وكيد المكابرين لزهدت فى عيشه وفررت من الشهرة الى الخمول ولرأيت رأي المعرى فى قوله

تمنيت لو أنى بروض ومنهل
مع الوحش لا مِصرا أحل ولا كَفْرا

فاعلم أن الشهرة سجن من سجون النفس يعقلها فيه حب الكمال الانسانى ويكلها لخفارة الفضيلة فلا يقوى على البقاء فيه الا قوي الارادة . وليس كل من عرفت من

النبهاء مضطلعاً باحتمال مايعرض له من ألام ذلك السجن ولا قادراً على مصارعة الهوى. وكم من نبيه أعياه أمر نفسه فنزع الى الخمول واختبأ في ثنايا النسيان ورأى أن كفة اللذة مرجوحة فى باب الشهرة فنزع الى كفة اللذة فى باب الخمول

لقيت مرة أحد أولئك الذين كانوا من النبهاء ثم سكنوا الى عيش الخاملين فقلت له فى ذلك فقال لى لقد وفيت قسطى من الأولى وها أنا ذا استوفيه من الثانية فقلت له وماذا أصبت فى الحالين. قال أصبت في الأولى لذة تكتنفها الآلام وأصبت فى الثانية ألماً تحيط به الملاذ ولقد كنت وأنا فى ربيع الشهرة كأنى المعني بقول أبي النجم فى أرجوزته

كالغرض المنصوب للسهام أخطأ رام وأصاب رامى

وكان شعارى فى التمثل بهذا البيت

فياعفتى مالى ومالك كلما هممت بامر همّ لى منك زاجر

فكان الخامل اذا حاول التسلق الى مراتب الشهرة جعلنى سلما لغرضه واعتمد عليّ فى الوصول الى غايته وكأن الناشىء فى حرفة الأدب لايرى لنفسه منفذاً للظهور فى غير

الغض مني والوقوع فيّ فلا تخلو مقالة يحبرها أو قصيدة يقرضها من انتقاصي والنعي عليّ فيما اذهب اليه من مذاهب الأدب كنت أقرأ كل مايهذى به ويدى قصيرة عن ادراكه لعجزه وخموله وما يعجزك مثل العاجزين . دع ما كنت أكابد من حسد المعاصر واقاسى من صرف النفس عن سبيل الهوى فكم تمنيت مجالس الشراب والتبسط على اللهو وحالت بيني وبينها الحوائل وكم التفتتْ نفسى الى ما يدعو الى التفات النفوس من الشهوات فحاكمتها الى سلطان الكمال . وماددتها حبل الجدال . حتى اذا همت بالخروج عن دائرة الامتثال . وسئمت صحبتها على تلك الحال . رأيت أن أرفّه عنها وأهون عليها فعمدت الى الخمول لاجمع فيما بقى من أيام العمر بين اللذتين وأسرح النفس من ذلك السجن الذى كاد يأتى عليها وما فعلت ذلك التماساً لعقوق الفضيلة أو نزوعاً الى عيش المستهترين من عبدة الشهوات فليس ذلك من أمرى ولا هو بمأخوذ عند مثلى ولكنى فعلته طلباً للهدنة بيني وبين الزمان وإشفاقا على الحاسدين من حسد

أ كل صدورهم وعملا بقول القائل

ليس الخمـول بعـار ٍ على أمرىء ذى كمال
فليـلة القـدر تخـفى وتلك خير الليالى

كذلك كان يحدثنى ذلك النبيه عن آلامه فهل تغبط بعـدها نبيها على عيشه وتتطلع الى الدخول فيما يخرج عن الطوق الم تر الى فريق الفلاسفة كيف أنه اختار العزلة ونفر من الشهرة وهـذا (ابيكير) اليونانى يقول استرحياتك مااستطعت

قال صاحبي لقد حببت الي ّ عيش الخامل على مافيه من غضاضة تلحق بالنفس وفتور يقع فى الهمة وان كان هذا شأن الضعيف من الناس فانى أرانى قد خلقت ضعيفاً ليس فى طوقى احتمال ما ذكرت من المصاعب . فلو أنه سلف لى من نباهة الذكر ماسلف لى من الخمول لقارنت بين الألم فى الحالين. وحكمت بين الراجح والمرجوح من الكفتين. ولـكن سلنى ان شئت عن آلام الخاملين أصوّرها لك تصويراً يبلغ منك مبلغ العيان

قلت مهما تأنقت فى التصوير وأبدعت فى التعبير فان ذلك لايكون شيئاً بجانب كلمة يقع بها فى عرضك سافل رجاء أن يجتعل على سبك من حاسد يكيدلك أو معاصر ينفس عليك وها نحن أولاء قد بلغنا مكان الافتراق فمنى عليك السلام

قال الراوى ثم أخذ كل منا سمته الى داره ولما كان الغد وقد حان الموعد. خرجت أطلب سطيحا فأخذت طريقى اليه ولم يسم لى فيه مايلفت النظر ولم يقع بصرى على حيّ استصحبه غير انى لم أكد أبلغ مكان اللقاء حتى تراآى لي انسان لم أدر أخرج من الارض أم هبط من السماء فتبينته فاذا هو غلام مراهق يتيمَّنُ الناظر بمشهده كانه صور من نفس من ينظر اليه فدانيته وأنا أكبره لما ألقى الله عليه من الهيبة وقد بهرنى جماله وأخذ منى حسن سمته فما هو إلاّ أن رآنى حتى أقبل بوجهه عليّ وخاطبنى بلسان عربي قدخلص من لوثة الأعرابية وسلم من لكنة الاعجمية قال بعد ان حيانى وسكن اليّ وداناني إن وليّ الله يأذن لك ان تنطلق الى

هـذه الحاضرة وأنا ولده فكن مني بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران فقد أذن لي أن ابرح الليلة الغار. ومدّ لى فى أجل الرجوع حتى يلوح النهار. فقلت له وقد تحفظت ما استطعت من ان تبتدرنى سقطة فى الـكلام فيعدّها عليّ فقد رأيت نفسى امام عربي فى صدر الاسلام قد قوم التنزيل من لسانه وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه ألا أرى الليلة وليّ الله وقد كانت بينى وبينه آية للقاء

— قال انه يتهيأ للقاء الخالق وقد انقطع عن كلام المخلوق ألا تذكر ماقال لك يوم ظفرت بلقائه (لقد كشف لك عن مكانى وقد آن أوانى) قلت الا اتذود منه بنظرة قال فى غـد أن شئت اعد الـكرة فانه موعود برؤيتك فى يوم خروجه من الدنيا ثم أومأ اليّ بالمسير فسرت كالمـأخوذ ونفسى على غير ما اعهد كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التي تتصل فيها بعالم الملائك وكنت كلما نظرت الى ذلك الوجه المقسم وهو يتألق بجانبي هممت بتصديق المقنع فيما يدعيه فى بدره وما يخيله للناس من ضروب سحره فما زلت أسايره وما أكلمه

هيبة واجلالا وقد كنت آليت أن لا ابدأه بالكلام حتى عبرنا الجسر وقطعنا مابين يديه من الطريق وقد هممنا أن نعطف يسرة قال صاحبي أراك منذ صحبتك صامت اللسان وان كنت ناطق الجنان فما لك لا تحدث ضيفك

— قلت انى رأيت فيما لايغيب عنك من أدب المحاضرات أن لا يكون كلام الصغير الا جوابا على سؤال الكبير وقد ساورتنى منك هيبة فكرهت أن أبدأك بالكلام فتنزل أمرى على الجرأة عليك وقد قال الاستاذ الأمام رحمه الله (العلم من علمك من أنت ممن معك) وانى لخليق أن لا اخرج عن أفق القدر الذى حدده لنفسى علمى بها فليس لى عنه متقدم فأغرر بها ولا متأخر فاغض منها

— قال إنى لأرى أناة تحمد . وفضلا لا يجحد .ولقد اكرمك ولي الله بحسن الثقة وأكرمنى بصحبتك ايها الاديب فانطلق بى الى تلك البقعة التى وقف الشيطان فى ساحتها يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار فى العود ويشيع المنقلب عنها بنظرة لو كانت سهما لنفذت

من صميم الجلمود قلت لعلك تعنى الازبكية قال اى وأبيك فانطلق بى اليها قلت بأي الاندية تريد ان نبدأ قال بانفقها سوقا.واكثرها فسوقا.قلت هذه المراقص المصرية.والمخازى العصرية ثم هممنا بالعطف على احداها فاذابصاحبي يحدالنظر الى انسان يتعثر فى مشيته.يريد بناؤه ان ينقض عند كل خطوة من خطواته لفرط هزاله. وسوء حاله. عليه لباس قد اخذت منه الاجواء. وتعاقب عليه الصيف والشتاء. وقد نم منه الظاهر على الباطن فقرأت على وجهه سطور السأم وآيات الالم .فقلت انى ارى سيدى ينعم النظر فى هذا الانسان ولعله قد داخلته رقة عليه قال أى وأبيك إن فى هذا الهيكل لنفسا سجينة. وان فى ذلك الصدر لاسراراً دفينة. فلو رأيت ان ندانيه فنستبطن امره. ونستطلع سره. قلت وقد جعلت أنعم فيه النظر كأني اعرف هذا الانسان وان تنكرت معارف وجهه.وكادت تندرس معالم جسمه.فمازلت انفيه واثبته وهو مشغول عنى بقراءة صحيفة فى يده وقد غمره ما هو فيه من الحزن والأسى حتى تحققته فناديته باسمه فرفع طرفه

ودلف اليّ مسلما وقال لي مغمغما لا تقذ عينك بالنظر الى هذه الاسمال. فلولا مطاردة القوم لرأيتني على غير تلك الحال. قلت وقد جال الدمع في عيني جولة لم تخف عليه لعلك لم تحفظ قول التهامي في الدهر. وهو يتقلب منه بين اليسر والعسر

لاتحمد الدهر في بأساء يكشفها

فلو طلبت دوام البؤس لم يدم

والدهر كالطيف نعماه وابؤسه

عن غير قصد فلا تحمد ولا تلم

ثم التفتُّ الى صاحبي وقلت له هذا احد من طوحت بهم يد السياسة الانكليزية الى مهاوى البؤس والشقاء فان شئت حدثك فان له حديثاً يأكل الاحاديث قال ما اشوقني الى سماعه ثم انتحينا ناحية وجلسنا. وبدأ ذلك البائس يحدثنا

اللهم إني أعوذ بك من ثلاث. الموت الاحمر والرداء الاحمر والكتاب الاحمر. قال صاحبي على رِسلك أما الموت الاحمر والرداء الاحمر فقد عرفناها وفهمنا مغزاها فما عسى أن يكون ذلك الكتاب الاحمر

قال وضعه قائد الجيشين. ورافع العلمين. الحاكم بالارادتين ووكيل الدولتين. فاتح ام درمان. وحاكم السودان. وصاحب جزيرة إسوان. رافع ارم ذات العماد. وقريع فرعون ذى الاوتاد. واصل أعصاب الفيافى والقفار. باعصاب المدائن والامصار. ساكن القصر ونابش القبر. ناسف القبّه وسالب الجبه. وهو المهدي. رفات المهدى. والجاعل قبته مربطاً للجياد. ومسجده ملعبا لحُمُر الأجناد. الناقل تلك الكنوز والدفائن الى تلك المصارف والخزائن. المغربى الذى يستشف أحشاء الخبايا بسحر السياسة. وطلّسم الفراسة. ويفك ماعليها من الارصاد. بدماء ابناء البلاد. بعد تبخيرها بخور التمويه. تحت مُلاءة الترفع والتنزيه. ذلكم اللورد الكريم مخض قانون دولته ثم استخلص من زبدته ذلك الكتاب الاحمر واضاف عليه حاسبه الله ما اضاف وهو اليوم تجرى عليه الاحكام فى الجيش وان لم يوقع عليه امير. ويشعر به وزير. وللجيش قانون آخر قد اشتملت عليه صدور القوم لا تدركه ابصارنا. ولا تحيط به اوهامنا نقشته يد السياسة على صفحات تلك

الصدور فلا يمسه إلا من مس ّ تراب تلك الجزيرة جثمانه ولا يراه الا من رفعت يد الزُلفى عنه الغطاء ذلك قانون الارادة

فالويل لمن وقف وقفة المجرم امام القانون الاحمر والويل ثم الويل لمن وقفها امام قانون الارادة ذلك الذى نفذت ارادته فى أصحاب الثورة السودانية وكاد يلحقهم لولا دفاع الله باحدى الجزيرتين. وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكما من حديث أصحابها . انهم فتية ربهم أعلم بهم غلبوا على أمرهم وأخذوا بجريرة غيرهم وانى اقص عليكما من انباء الثورة فقد حضرت أولها وعلمت بآخرها

صدرت مشيئة القائم بالامر فى السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود فتساءل الناس عن هذا النبأ ومشى بعضهم الى بعض وقد ارجفوا يومئذ بسقوط الوزارة وانحراف الامير عن القوم فكثر التأويل كما كثر القيل فتنبأت طائفة ان سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقى من انتقاض الجيش وقد نما خبر خذلانهم فى أوليات الحرب الترنسفالية وظنت طائفة أخرى ان سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا انه واقع

بين الامير والقوم وقال ذوو الاسنان منهم انها محنة من محن السياسية يبلون بها طاعة الجيش

وقال صاحب الامر وقد انهى اليه عيونه امر تماوج الجيش انما نفعل ذلك صونا للذخيرة من الرطوبة وحرصاً عليها من الضياع والمصرى من الجنود كخرقاء اصابت صوفا لايحسن القيام بحفظ ذخيرته وقد علمتم حال الزنجى اذا ملكته سورة الغضب فانه حاضر الانتقام يغضبه أخوه لبادرة تبدر منه فلا يرى أهون عليه من الفتك به وما أردنا بهم إلا رشدا

ولما كان الليل واجتمع احداث الضباط فى ناديهم وأخذوا يتحدثون فى أمر يومهم قال قائل منهم أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود ونحن فى بلد غير أمين وهذه دماء اعدائنا لاتزال غريضة وتلك اجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة وتغلغل الضغن فى نفوسهم وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها وما أحسبهم وقد علموا اليوم بحالنا الا غادين

على مباداتنا لعلهم يثأرون . وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ويتسقطون الخبر وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم فهم يعبدون الرداء الاحمر . والفارس الاصفر. فلم يجدوا شيئا يلقوْن به صاحبهم هو اقرب زُلفى من نقل ماسمعوه فاستبقوا بابه ورفعوا اليه الامر على غير وجهه فوقع كلامهم في نفسه ووعدهم خيرا

وبات يقلب طرفه فى أسطرلاب السياسة ويحسب تقويم كواكب الرأي فى أفق الدّهاء وحدث فى ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصفت برءوسها النخوة فعطفت على الذخيرة فارتدّتها قسرا ولما حاول كبيرهم ان يثنى عنها عنانهم .ويحول بينها وبينهم.وفوّه قسطه من الاذي وما زالوا به حتى رنحوه لطما ولكما

فعظم الأمر على صاحب الأمر وكادت تتخلع شعبة مهجته هلعا . ويقطع نياط قلبه جزعا . وتمثل له شخص واشنجتون وفى يده علم الاستقلال وطار به الوهم الى لاديسميث فانحلت منه الاوصال ونسي انه بين مصريّ له

وليٌّ من الذل. وزنجيٌّ على قلبه أكنة من الجهل. وكذلك لم نجد له عزماً. فجمع اليه نفراً من قومه وشاورهم فى الأمر فأشاروا عليه بالتماسك وان يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشؤون المستخف بالكوارث فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرسيٌّ ولا يماشيه أحد من قومه وكان يكون معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وامضاء أمره فما زال يستقرئ الوجوه والأبصار وهو كلما مرّ بقوم تراصفت أقدامهم والتصقت أيديهم بجباههم وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع حتى اذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع نظر فاذا جيش من النسوة يموج بعضهن فى بعض وفى يد كل واحدة منهن هراوة فما هو الا ان طلع عليهنّ حتى عطفن عليه يعبسنّ بها وجه جواده. فاشفق ان يصيبه عنت منهن فلوى رأس جواده وأخذ يحثه هربا وما زال يركضه ملء فروجه حتى وصل الى دار حكمه. حيثما آمن فى سربه أصدر مشيئة ثانية بابقاء الذخيرة فى أيدى الجنود حتى يوحي لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود

وبعد ان كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة وحفظها من الضياع اصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع فدعت مثنوية رأي الحاكم سوء ظن المحكوم حتى ذهبت الظنون مذاهبها وحتى قال أحد الجنود السودانية لكبيره وهو يخطبهم ويدعوهم الى الامتثال الم تعلم ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقاً ضعيفاً كان أو قوياً الا جعل له من جسمه مايدرأ به الاذى عن نفسه وهذه السمكة في قاع البحر قد انبت لها فى ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر فكيف بى وأنا ليس لى ما أذود به الردى عن نفسى الا تلك الآلة التى نزعتم روحها فاصبحت كالعصا وما اردتم بنا الخير ولكن على كيدنا تعملون

وفى ذلك اليوم استدعى صاحب الامر أصحاب ذلك النادى وقد طرح عنه الانفة السكسونية وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانية وأخذ يروض نفسه على التخلق باخلاق بني الانسان وقال لهم وقد مثلوا بين يديه وما منهم الا من استروح روائح الرفق من شمائله لقد رفع الينا خبركم

بالأمس وما خضتم فيه من الحديث فكدنا نعجل العقاب لولا ماسبقت به شفاعة الحلم فانتم وان اخطأكم عاجل العقاب فلا يخطئكم آجله اذا عدتم لمثل فعلتكم التى فعلتم فاذهبوا طلقاء السّن فلولا حداثتها لمثلنا بكم تمثيلا واياكم وذكر السياسة فلستم من المنزلة التى يتناول اهلها الكلام فيها فانزعوا عن شياطين الصحف فهى انما تزين لكم من العمل مالا تحمد له مغبة ولا تغتبط عاقبة ولا يقوم بنفوسكم ان الكهرباء الفرنسية تسرى فى أعصاب أرض وطئتها قدم الانجليزي فهى لها الجسم العازل. والحد الفاصل. فما غاب عنا امركم ولكن سوف تعلمون من منا يحزّ الودج أسفا. ويقلب الكف ندما ويقول ياليتنى لم اتخذ مع الجهل سبيلا ولقد كنتم فى ضلة فهديناكم . وفى ذلة فاعززناكم . وما كان المصرى فى العز باجمل منه في الذل فحسبكم ماسمعتم فما بعد اليوم الا ما علمتم فخرجوا وهم يحمدون الله على النجاة من مخالب العقاب

وينقضى ذلك اليوم والاحرف البرقية تنبض باسلاكها والرسائل بين السردار ونائبه تروح وتغدو على وجهها وتملأ

انباء الثورة فؤاد السردار رعباً فيقول فى نفسه أفتنة فى الجيش ولمّا أقم بالامر فيه غير أيام معدودات فياسعد كتشنر كيف تحولت لى نحساً فيخف الى العميد فينفض اليه جملة الخبر ثم يستوزعه الرشاد فى العمل فيلقّنه كلمات يلقى بها الأمير

قد أخرجوه بكره من سجيته

والنار قد تنتضى من ناضر السلَّمَ

فيصدق الطير ويعود السردار وهو يحمل ذلك الامر العالى وهنا تمنعنى هيبة الامر عن التعرض لذكر ما جاء فى الامر فالله عليم بذات الصدور

كل ذلك وحركات السياسة الانكليزية تجرى فوق سكون الجيش وهو كأنه فوق جارية فى عرض البحار نام رُبَّانها وتولى الموج امرها فما لبث ان توج بها رأس الصخر ثم جعلها سرّاً فى جوف البحر. ولما ظفر السردار بمناه راغ روغةً فاذا هو بالسودان وقد شمرت ايام عيد الفطر فأمر بتجديدها وان تحشر له جنوده من السودانيين والمصريين ونادى من قبَله المنادى معشر الجنود كل من نابته ظُلامة

أو نزلت به شكاة فهذا باب السردار لا يحجبه عنكم حاجب فطفق الضباط يتسابقون الى بابه وجعل يقابلهم على انفراد وهو كلما خلا باحدهم بالغ في محاسنته ومصانعته فلا يكلمه الا ماء البشر يجول فى محياه وكذلك انقضى اليوم والسردار ينثر عليهم بذر المواعيد فما خرجوا الا ورءوسهم مملوءة بالامانى وايديهم بالامال

ولقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى كل حول يومان يوم جعله للنعيم ويوم للبؤس فكان يحبو من يلقاه فى يوم نعيمه بما يجعله مكفيّ المؤونة طول حياته ويصب على من يعثر به فى يوم بؤسه سوطا من العذاب فاراد ملك السودان ان يجرى فى طريقة ذلك الجبار باحياء سنته ففعل شرْواه غير انه زاد عليه فجعل للنعيم شهراً أو للبؤس شهراً . فمضى الاول منهما وهو شهر النعيم والجنود السودانية ترتع وتلعب والسردار يعطى ويهب وكبار الضباط تصبح وتمسى على الموائد والمصريون كأنهم المعنيون بقوله تعالى فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا

فاذا أيام النعيم ولت . واذا أيام البؤس حلّت . واذا الموائد رفعت . واذا الصلاة قطعت . واذا العهود نكثت . واذا الصدور نفثت . علم المصري انه غُلب على امره والزنجي انه جنى على غيره وهنا يلوح هلال شهر البؤس يطالع فى صحيفة الأفق أسماء أولئك الذين تقاسمهم العزل والطرد . فلم تشرق شمس يومه الاول حتى أصبحت دار الولائم . ساحة لانعقاد المحاكم . وامر السردار ان يكون التحقيق علانيا بعد ان كان سريا واليك بيان ماوقع فى السر والعلانية

استقدم القائم بالأمر فى السودان قبل ان يروعه الامر بالسفر الى الترنسفال رجلا من كبار الانجليز وكانت الثورة اذ ذاك فى عنفوان شبابها وقد بلغ الخطب اشده كما يزعمون فولاه امر التحقيق وامره ان يسلك فيه سبيلا أخفى من السر واظلم من الكفر وقال له لتكن عيونك فى نقل الخبر . كنسيم السحر . ينقل عن يانع الزهر . وهو لا تدركه العيون . ولا تحيط بمسراه الظنون . وضع أمامك ابرة الخداع فهى لا تلبث ان تقتادك الى الحقيقة ولا يحزنك اجتماع المصريين

فالمصرى والمصرى كشعبتى المقراض ما اجتمعا على عمل الا افترقا . وليس التفريق بين أنامل اليد وقد التصقت بايسر من التفريق بينهم وقد اجتمعوا . ولا يغمض عنك ان النثرة من النقود تنثر مافى رءوس الزنوج من الأفكار وان التفريق عليهم يدعو الى التفريق بينهم. وليجتمع فيك ما اجتمع فى الرمح من البأس واللين. وليكن كلامك كالنفس في كونيه ان شئت لطفتَ به الحارّ وان شئت فالعكس. ولتتخرق كفك بالنوال فقد ضمنت رده الينا تلك المناجم الذهبية التى نحن فوقها الآن وادع اليك هؤلاء الزنوج وحدانا واخل بهم كما يخلو الشيطان بالانسان وكن كالدينار لتجتمع القلوب على الرغبة فيك. ولا تنس كلمة ارسطاليس للأسكندر حين نصح له فقال واجمع بين بدار لا خفة فيه وريث لا غفلة معه. فخرج من عنده وهو يترسم ذلك الاثر ويقول ان نفعنا الدهاء فاليوم ولما خلى بنفسه وجمع اليه كيده ارسل خلف العيون فالقى عليهم كلمات يعملون بها ثم أخذ ينظر فى وجوه الحيل ويستنبط أمثل الطرق وما زال يستمد قريحته حتى فتق له الذهن ان يبدأ باستمالة الجنود

السودانية فجعل يدعوهم ليلا على انفراد فاذا ظفر باحدهم هش
له وادنى متكأه وحادثه محادثة القرين وقد طرح عنه أبهة
الرئاسة وجلس معه على بساط المساواه حتى اذا سكنت نفسه
الى حديثه وعلم انه خلبه بسياسته وكياسته طارحه حديث الثورة
وما كان منها ثم استرسل الى ذكر اسبابها فقال ان الامير
حرسه الله ليتسخط عند سماع هذا النبأ وهو اليوم واجد
على الجيش لانتقاضه على أولياء الامر فيه وما غاب عنه ان
أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه
من قبل هم الذين استهووكم بالاباطيل فما فعلوا ذلك الا نكالا
بكم حين علموا اننا سنبلغ بكم اسمى المراتب فنجعل منكم
الامراء والحكام في السودان ثم نمكن لكم فى الارض وقد
علمتم مالنا من الفضل على الجنس الاسود فنحن الألى
نزعنا عنه اطواق الرق والعبودية ونحن الألى ساوينا بينه
وبين الجنس الابيض كما ساوى الربيع بين الليل والنهار . وما
كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الامر فنعرف
أولئك المصريين الذين نفخوا فى مناخركم فركبتم رءوسكم

وطاوعتم اهواءكم حتى اذا ادرك الجزر بحر الهياج تسللوا عنكم وخلفوكم بين السخط والعقاب فاذكروا لنا اسماءهم لتنظروا كيف نمثل بهم واعلموا انكم لا ترون بعد اليوم الاّ خيراً ولا يرون الاّ شراً وما مثلنا معكما الا كمثل لعاب المزن تصيب منه الاصداف فيكون درّاً وتصيب منه الصلال فيحول سمّاً

يقول ذلك والقدح لا يكاد يفرغه الزنجى . حتى يملؤه الانكليزي. فاذا نال منه الحديث وأخذت الخمر استملاه اسماء أولئك الذين يزعم انهم جروهم الى عدم الانقياد فيملى عليه مايحضره من تلك الاسماء ولا ذنب لاصحابها الا أنها مرت بخاطر هذا الزنجي . حين اضطره ذلك الانكليزى . هذا ما كان يدور عليه فلك السياسة البريطانيه . مع الجنود السودانية . اما الضباط منهم فقد وجدوا السبيل الى استمالتهم بالمواعيد فكان اذا خلى بهم ذلك القلّب طارحهم مااسلفنا من الحديث وزاد عليه فقال وما كان لنا فى جميع الذخيرة من ارب سياسيّ كما وسوس لكم أولئك المصريون ولو شئنا

لاشئنا ان نوقع بكم لأ مرنا بعمل مناورة حربية فاتلفنا فيها كل ماباياديكم من الذخيرة وانتم لاتشعرون . ولكن فلان هو الذى ساقه قائد العجلة الى ركوب هذا الشطط فكان جزاؤه الخروج من الجيش فقد احفظ العميد واغضب الامة ونبه نياماً لم توقظهم رعود السياسة منذ ثمانية عشر حولا على انا سنردهم الى سبات لايقظة معه بعد ان نبدد شمل الجيش فى اقطار السودان ولنجعلن كل اثنين منهما كالمتآزيين فى مستو واحد لايلتقيان . ولسوف يعلمون من منا أكثر مالا وأعز نفراً ثم يستمليه من تلك الاسماء فيملى عليه ماشاءت الخمر وشاء الامل

ولما اهتدى ذلك المحقق الى مالا تهتدي اليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب وجمع فى خريطته مايربو على الثمانين اسماً خف الى كبيره وقد حمل ظلما فوالذي علم ادم الاسماء كلها مااشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه. فقال له كبيره وقد نظر فى الامر نظرة الحكيم انى لا أرى رأيك في عقاب هؤلاء الثمانين وما

جرت الثورة العرابيه الى مايقارب ذلك العدد ولكن تضرب عليهم بالقداح فمن صادف النحس سهمه حق عليه العقاب ولا تجاوز تلك القداح أنامل الكفين عداً فاذا فعلنا ذلك أمنا شر العاقبة وفزنا بالغاية من ارهابهم وما احسبهم بعد ذلك الا قد صدفت قلوبهم وانصرفت وجوههم عن بعضهم بعضا ومتى انتهى فصل العقاب عمدنا الي النظر فى وجوه مطالبهم فادخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم وحبونا بعضهم بالنياشين . فينسيهم ماهم فيه من السرور كل مالحق باخوانهم من الشرور ولقد غضب الاسكندر يوماً على أحد جلسائه فامر بابعاده وتفريق ماله على اخصائه فقيل له فى ذلك فقال فرقت ماله على احبابه لكى لا يشفعوا فيه وكذلك كان رأى الحاكم العام فى أخواننا الذين سبقت لهم منه الحُسْنَى وفى الأُلى حق عليهم منه العقاب

خمدت جمرة الثورة التى كان يحدمها الوهم وسكن بحر الهياج ووقف فلك العصيان وعادت اجرام السياسة الى الدوران ورجم الثائرون بشهب من العذاب فمن يثر اليوم

يجد له شهابا رصدا. وهدأ زئير الأسد البريطانى. وأصبح حاكم السودان مبرود الغليل. وحمد العميد مغبة الرأى. وقام الواعد بوفاء الوعود فخلّى صدر الدجى بكواكب النياشين وصدرت نشرة المكافآت وما لغير الزنجي فيها نصيب. وآن لنا أن نشرع فى ذكر أسباب الفتنة السودانية فقد علمنا ما كان من أدوارها

لقد أراد الله ان تمتد الثورة من كوخ حقير كما امتد الطوفان من التنور وسببها كلمة خرجت من ذلك الكوخ فحملتها الريح الى اذان الجنود السودانية

كلمة لأمةٍ كانت تحت جندى من الزنوج جاءها زوجها عشاء فسألته عن أمر يومه فذكر لها حديث الذخيرة فقالت له وما عسى أن تكون حالكم اذا صبحكم العدو أو مساكم فلقد أصبحنا سواسية فى العجز وبات الرجال والنساء كاسنان القوارح .

فليت لى بك زوجا ان أشرت له

هذا العدو أتى اصلاه نيرانا

تلك هى الـكلمة التى مارت لها جزيرة القوم واهتز العرش البريطانى . وطار نوم حاكم السودان . ومرت امامه حوادث حرب الاستقلال مرور الصور المتحركة تلك هى الـكلمة التى اجتمع لها البرلمان وقرر تخفيض الجيش.وحكم على كل مصرى فيه بسوء العيش . ولقد كنت احد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء مابى من سوء الحال غاية . ولو لم أكن متخرجا فى المدرسة الحربية لـكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال ولـكننى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال

الجهل شخص ينادى فوق قامته
لاتسأل الربع مافى الربع من أحد

فلقد لبثت فى الجيش مع من فيه بضع سنين فصبرنا على مالا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سخروا لبناء الاهرام وأقامة البرابى وما باتت الأنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الانكليزية نعم ولا لاقى جيش الاسكندر فى فتوحاته ولا جيش نابليون

فى غزواته بعض ما لاقته هذه الفئة المصرية . فى الاقطار السودانية . فلو حاول الانجليز وصل الكرة الارضية باحدى السيارات بمد السكك الحديدية لما وجدوا من يصابرهم على هذا العمل غير ذلك الجيش فلقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش الى الحال التى تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم تخطئهم وساوس الصدور ولم تفتهم خطرات الافكار

دخلوا مصر وفى جيشها من هم أولى سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم ومن حنكته السن وغزته التجربة وخبطته الحروب فكنت ترى فيهم المهندس الماهر . والكيماوى الباهر . والمحيط بفن الحرب . وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا فاشفقوا ان يكون هؤلاء أمام سياستهم صفا صلداً . فزحزحوهم عن اماكنهم حتى اصبح الجيش عُطلا من كل رجل ركين . ثم نظروا فاذا المدارس الحربية تغذوا أشبال تلك الاسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حلي

فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السليبة ثم تموها اساتذتها
وأراد ربك فأمست وهى أشبه شىء بمصانع الدجاج . يدخل
فيها التلميذ فلا يسلخ ستة اشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف
صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها . لا يزيد علمه
فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه وما كانت قوة
التصوير الشمسى بأسرع فى اخذ الصور من تلك المدرسه
فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش

فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح
العلوم ونضبت سيول المعارف واقفرت غرفها من نجباء
التلامذه وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك وبات
يطلبها كل فدم وجاهل كما تطلب البوم الضيعة الخربه

يمشى الكبير من الانجليز فى معسكر الجنود السودانية
فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام وكأنهم وقعوا
على تمرة الغراب . فيقف عليهم ويتفرس فيهم ثم يختار من
تدركه السعادة منهم فيقذفه بمنجنيق ارادته على أسوار
المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده اليه وعلى كتفه

نجمان من نجوم النحوس فيغدو اليوم حاكما على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس وربما كان فيهم عمّـه وأبوه

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم
وقد ينال الى أن تعبد الحجرا

ويمر ذلك الكبير من الانجليز على الجنود وهم على مصافّهم قيام فيروقه منظر احـدهم ويعجبه حسن سمته وما هى إلا لفتة منه الى كاتم سره حتى يمسى ذلك الجندي تلميذاً فلا يهل بالمدرسة شهراً حتى يوافى اخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد يمسكه لسال خجلا

شكا ضابط مصرى الى كبيره وهو يحاوره من سوء العيش وجفوة الرؤساء وكثرة الأتعاب وقلة الأعطية فاجابه الانجليزي وقد أمال سالفته تيها وثنى عطفه كبراً. اذا اصبح السردار وقد أراد ان يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذة ألا تتم له تلك الارادة . قال المصري بلى فلا يكلفه ذلك غير النشر فى احدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العـذب . قال الانجليزي لهذا انتم فيما

انتم فيه من البلاء فهو إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد
ولو عاف المصريون ورود هذا المورد وانصرفت وجوههم
عن ذلك الباب وعزفت نفوسهم عن الولوج فيه لاصبحتم
من الاعزاز بحيث نحن الآن ولكن أنىَّ يكون لكم ذلك
وما فيكم إلاّ من هو معنيٌّ بقول ذلك الشاعر الجاهلى

لحا الله صعلوكا مناه وهمه
من العيش ان يلقى لبوساً ومطعما

لذلك تكسرت فى المصري الاظافر وبات مهضوم
الجانب غير مرعيّ الجناب يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء
القالة وهو كأنه العمر كلما مر به يوما لحق به النقص
ينظر المصري الى الانجليزي وهو كأنه ينظر اليه بالنظارة
المعظمة فيكبره رهبة واجلالا ويتضعضع لرؤيته ٠وينظر اليه
الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافابشأنه
ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ومنحه
نعمة التنفس فى جو يتنفس الانجليزى فيه وهو ان خاطبه
خاطبه بلسان لاتجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق

او باشارة يخالطها الجبروت ويزد هيها البطر .

هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط اما الكبار منهم كبار الرتب والاجسام.لا كبار النفوس والاحلام.فحالهم الى الرحمة أدعى منها الى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الانجليزية كؤوساً من منقوع الرعب. فاذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث حتى اذا صدر له أمر بشيء كاد يخرج من ظله سرعة لأمضاء ذلك الأمر فهو الى اجابة داعيهم أسرع من الصدي وهو على حفظ أمره أحرص من الفنوغراف على حفظ الصوت

اللهم ان العيش مع الابيضين وان أبردا العظام .اروح للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن اكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروقك ماترى ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء افئدة هواء .

فليت سيوفهم كانت عصياً

وليت نجومهم كانت رجوما

قال صاحبي وهو مقبل عليه انى أراك موتورا فلا بدع

اذا بالغت فى النعي على القوم فيما يذهبون اليـه من ضروب سياستهم

قال البائس وما عسى ان تقول اذا حدثتك عن حياة الضابط الانجليزى فى الجيش المصرى

يهبط أحدهم مصر فماهو إلا أن يشم نسيمها.حتى يقابله الامر بمنصب فى جيشها

فاذا سما من رتبة المأمور الى رتبة الآمر وأصبح عطاؤه الذى كان لايتجاوز أيام الاسبوع عدًّا وقد تجاوز ايام الشهر وتقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه الى معدن يرغب فيه وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم الى كنوز الذهب وهبت ريح سعوده . ونسي جلود جدوده. نظر الى المصري تلك النظرة التي أسلفنا وصفها. وقد جعلوا ثوابًا لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط فيأخذ عنهم مبادىء اللغة ولا يبدأ فيها الا بحفظ كلمات الهجر والفحش فاذا وعى منها كلمة واراد استعمالها فيما وضعت له أسرع الى المصري يجبهه بها عن غير ذنب

فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق فاذا أنّ
لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الانجليزية كذلك
نصيب كل مصرى يخاطبه الانجليزى بالعربية ولم يفهم
مقصده لتعذر النطق عليه أولعذوب الكلام عنه أولا يراده على
طريقة النطق الانجليزى فينطقه بلسان يرتضخ انجليزية وحلق
كأنه يقيء ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضبا وينشق
غيظا وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب
الانجليزى فبحثت فى الامر فاذا الانجليزى حديث العهد باللغة

والويل لمن يقع تحت سيطرة الانجليزى قافلا من الهند
فان رجله الى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه الى سبه

ومن لم ير نعيم الدنيا أو يزق عيش الترف فليقدم
الجيش وينظر الانجليزى فى لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم
زمانه. وعز سلطانه. اذا صاح أبتدرت صيحته الالوف. واذا
مشى قامت اجلالاً له الصفوف

واذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج
واذا غضب تقطعت لخوف بطشه الاوداج

أأفريدون فى التاج　　ام الاسكندر الثانى
ام الرجعة قد عادت　　الينا　　بسليمان

يهب من نومه فتراى الخدم على خدمته كلٌّ فى شأنه الذى نصب له. فاذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه قدم له الجواد فاستوى عليه ومضى متباطئاً الى حيث الجنود مصطفة للتدريب غير مبال بانتظار تلك المئات ولا بما يلحق بهم من السأم والملل اذا تأخر أوان تجليه عليهم الى وقت الضحى وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان. فاذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف وقامت البنادق وخفتت الاصوات وجمدت الشخوص وسكنت الانفاس لسكون النسيم اجلالا للقادم ورهبة للمقبل وما أسعدهم اذا أجاب على كل هذا باشارة من رأسه أو من يده ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفه أكبر ضابط مصرى يكتب عنه مايملى عليه من ملاحظاته ثم يركض جواده ملء فروجه الى ملعب الكره بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب فى غيابه ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان

وقد اخذ منه الجهد ظنه منقلباً من احدى مواقع البوير غب عراك وصدام.وتعانق والتحام.وروغ وإقدام.قد رنحه الضرب وأثملته الحرب يجر من ورائه رمحا قد جمد عليه النجيع بعد ما سالت النفوس .

وتحين ساعة عودته الى مقر حكمه فيغير من زيه . بعد ان يقطع صدر يومه . على مائدة الصباح ثم يوافى ديوان نهيه وأمره ومظهر علوّ قدره . فيتربع فى دست جلاله فما سليمان على بساطه . ولا كسرى فى ايوانه . باكثر جلالاً فى الصدور ولا اشد رهبة في النفوس . فاذا قعد للمظالم والاخذ للمظلوم من الظالم . فهنا لا تسل عن الميل والاحجاف وسل عن العدل والانصاف.والويل للمصرى يستعدى عليه الزنجى.الحاكم الانجليزيّ. فانه مدفوع به الى أقصى درجات العقاب.قبل انه يعلم الاسباب.فاي مصرى لا يفتأ يضرع الى الله ان يصبغ لون جلده . بسواد جده . ليخطو الى السعادة هذه الخطوه . ويحظو عند القوم بتلك الحظوة

والانجليزي في الجيش مشغوف بحب الأسود من

الالوان عامل بقول الشاعر الحكيم

وما كل وجه ابيض بمبارك

ولا كل جفن ضيق بنجيب

ولو انه انقلب الى بلاده فى عهد الحرب البويرية لرأى مايروق لعينه فيها من تلك الخرق السوداء خرق الحداد التى تتجمل بها الاذرع هناك وقلما ترى العين ذراعاً غفلامنها منذ كانت الحروب الترنسفاليه. فليسأل الله دوام تلك الحروب ليدوم عليه وعلى أمته سوادها وهذا اديم الليل فليقدوا منه ما استطاعوا اذا اعوزهم النسيج وعزت الالوان

ثم يعود الى داره فينغمس فى حوض من الماء فاذا تم ابترداه فيه تحول عنه الى المائدة حتى اذا امتلأ عمد الى مجلس الشراب واسترسل فيماهو فيه الي قبيل تطفيل الشمس ثم يفزع الي بارودته فيحتقبها وينطلق للتصيد فى الأودية والغابات وخلفه الكلب والخادم ولا يعقّب حتي ياوح سهيل

هذا كل ما يفعله الانجليزى فى يومه وهذه عيشته وتلك حالته

اما الجندي الأشقر . صاحب الرداء الاحمر . والعيش الاخضر . والطالع الازهر . فعيشته اعجب . وسيرته اطرب

يؤتى به من جيشه وهو من عامة الجند فيه عاطل الذراع .خفيف المتاع ٠فاذا قدم مصر ليلا أبى ان تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيسا لمكتب أفرنجى يعنو لأمرته كل من فيه من مترجم وكاتب ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء وتفتح أبواب الخزائن فيمنح من النقود ما شاءت القوة ومن النفوذ ماشاءت السياسة حتى يصبح محل الثقة وموضع السر ومحور الاشغال وقطب التنقلات٠ومركز التغيرات٠فلا يبرم الحاكم الانجليزي امراً دون استشارته فاذا دخل فيه العجب وغلب على نفسه الزهو نظر الى المصرى تلك النظرة التي اسلفنا نعتها فتتقاطرُ على بابه فئات المتزلفين وأرباب الحاجات فمن كان له به دخلٌ او خاصة كان السعيد المحبوّ ومن صلى لغير تلك القبله كان الطريد المجفوّ

واعرف واحداً منهم قداستطرد به جواد السعادة حتى أصبح قومندانا لحملة الجيش وآخر قد سمابه سلم العز حتى

اصبح من السردار قاب قوسين أو أدنى وهو اليوم بالسردارية واضع إحدى قدميه على العسكرية . والاخرى على الملكية تجرى على سن قلمه ارزاقهم . وتدور على طرف لسانه تنقلاتهم

قال الراوى ثم سكت قليلا واستأنف الحديث قائلا ولو انني حدثتك عن ذيل الثورة وما كان فيها من أمر الخائنين منا لاضفت الى عجبك من تغطرس الرؤساء استياءك من تدابر المرؤوسين

قال صاحبي وما عسى ان يكون ذلك الذيل . قال البائس مخزية أتى بها مصري وماذا أقول فيه والزمان أكثر منه وفاءاً بالعهود خرج من الثورة خروج القدح المنيح فكبر عليه الامر وقد كان ليث كتيبة الجواسيس على يده خربت تلك البيوت فى شهر البؤس وبيده فتحت تلك الزجاجات فى شهر النعيم وهو أول من طرق الباب على كبيره وخبره بما سمع وما رأى وأول من دخل فى نسبة القوم فكانوا اذا ذكروه وأعماله قال مارأينا غرابا أشبه بغراب من هذا بنا

قال فى نفسه لقد زجرت يد القدر طيرى بالنحوس ونسى القوم ماقدمت يداي. وما كان اشبهني بالعافية تذكر عندالمرض حتى اذازالت عوارض السقم سن صاحبها ذلك الذكر

فوالذى جعل إبليس من المنظرين لآتين عملا تأنف الحفظة ان تكتبه عليّ. ولأعقدن عقدة تحل لها العزائم فما حقد الخصيان على الفحول. بأبرى للصدور من حقدى على هؤلاء الذين فازوا بنعمة المكافآت دونى

ودخل بيت كبيرالجيش وهو ظالم لنفسه قال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين

منذحول دعانى سلفك وقد نمى اليه ان جماعة من المصريين ممن ينطوون لكم على غيرالجميل قد قاموا بتأسيس جمعية وطنية تحت كبيرمن ولد اسماعيل باتت تظلله القلوب وتحرسه الخواطر

قاموا بتأسيسها منذ خمسة اعوام وأخذوا فى الدعوة اليها حتى اتسعت هالتها وهالنى أمرها ثم أمرنى بالغوص على أسرارها والوقوف على أمرها فقمت بتنفيذ مشيئته وما زلت اخالط الضباط وأنا فى لباس من الرياء والتظاهر

حتى ظفرت بصديق قد آنس الى صحبتي وسكن الى
مودتي فاكثرت من مسايرته ومجاملته وسرت أطارحه
حديث الوطن وابتهل الى الله ودموع الخداع تتناثر على خدي
وما زلت به حتى سللت نفسه . واختلست لبه . فشفت
لي سرائره وأحطت علما بما في قرارة نفسه وتناولت ماوراء
ضميره فعلمت انه فرد من افراد تلك الجمعية فاسترشدته
فارشدني. وما كاد يستقر في نفسي هذا العلم حتى عدوت لا
الوى على شيء. فطرقت بابها وساعدني الجد فغشى الله ابصارهم
وطمس بصائرهم فافسحوا لي بينهم مكاناً وأقسمت لهم يميناً وما
زلت بهم حتى استفرغت أسرارهم واستبطنت امورهم
ووقفت على ورقة التراسل بينهم وما هي الا أن سقطت في
يدي حتى تمنيت لو مسخني الله طائراً فطرت لساعتي ووقعت في
حجر ذلك الكبير. ولما أقبل الليل في لون صحيفتي رغت روغة
فاذا أنا أمامه فرفعت اليه كل ماوصلت يدي اليه من اخبارهم
فسر حتى عجز عن مداراة سروره

وحال الحول ولم أعلم شيئاً عن أحوالها وكأنه طوى

كشحاً عنها وتثاقلت أنا الآخر عن تعهدها حتى وقعت حادثة الذخيرة فقلت فى نفسى مالهذه الحادثة بدٌّ من سبب فأطلت البحث فما زال يقتادنى حتى وقف بى على باب تلك الجمعية واكبر ظنى اليوم انها ام لتلك الحوادث فصحت عزيمتى على لقائك واطلاعك على باطن الامر حتى تحتاط له ولا زلت صاحب النظر الأعلى فى الامور

وخرج من عنده وما أدرى كيف لم تغربه الارض ولم ترجمه السماء ولولا أننى أعلم ما أعد الله له فى لواحة البشر من آجل العقاب لعجبت من حلم الله. فسبحان من وسع حلمه كل شيء فلقد أجل عقاب هذا الأثيم الى يوم لا تنفعه فيه شفاعة العميد ولا تغنى عنه أساطيل القوم شيئاً يوم يسبح معهم فى بحر من العرق كما يسبح اليوم فى بحر من الغرور

قال الراوى ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبي حسبك ماذكرت من أمر القوم فانى أراك تهم بذكر ماينبغى ان يدرج فى أثناء النسيان فان كنت لا تزال تعاظم الناس بعصبيتك فهؤلاء أهل دنشواي قد نسخ مانزل بهم من العذاب كل

ماسلف من أعمال القوم منذ حرقوا (جان دارك) الى يوم اصلوا أهل الازهر النار . وألقوا بمقاليد الامر الى هذا المستشار . فما تلك بيمينك أيها الموتور — قال صحيفة المؤيد ولقد أبرد غليلي ما كتب صاحبها اليوم من تلك الحادثة النكيرة

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراء أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة وهى لا توجد مع الضعف فى شيء غير متعدد ولو بالاعتبار

أما نحن فنقول ان العنف قد يكون مظهرا كبيراً من مظاهر الضعف وخصوصا فى سياسة الامم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فانها لا تكون فى الشخص الا حيثما يذهب شيء من فضائله ومزاياه فيحل الكبر بهذا الفرع ليكمل صاحبه علاء فى زعمه

وخذ الشراسة مثل فى بعض الناس فانها توجد حيثما يعوز المرء شيء من مزايا حسن النظر وضبة النفس وسعة

الصدر فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد اضيق الناس صدوراً من يسب غيره وأقلهم مقدرة على الاقناع الخطابي من يصيح فى وجه محدثه ليحمله على قبول رأيه

كذلك العنف وقوة البطش فى حكم الامم يحل محل حسن السياسة وقدر المسئولية قدرها فى كل عمل . وقلما ترى سياسياً محنكا قادراً على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدماتها الا كان عادلا حليما بعيداً عن فعال الظالمين

*
* *

لانذهب بالقارىء بعيداً بضرب الامثال عن الموضوع الذى نحن بصدده - فهذه مصر يدير دفة سياستها وادارتها المحتلون من الانكليز منذ ربع قرن وهم يقلبونها على كل وجه من وجوه النظام محواً واثباتاً وتبديلاً وتعديلا ورفعاً ووضعاً فلم تكن امة ألين عريكة وأطوع فى يد العامل منها تشكر حسن الصنيع وتصبر على الاساءة . ولو كان اللورد كرومر فى غير مصر لمج السياسة ومل أن يقيم في قطر واحد مثل

هذا الزمن الطويل حتى قيل انه فضل مراراً أن يكون قنصلا جنرالا فى مصر عن ان يكون سفيراً لدولته فى أعظم العواصم الاوروبية بل فضل هذه الوظيفة على أن يكون عضواً فى وزارة الاحرار ولو شاء ذلك لحفظ له مركزه فى الوزارة الحاضرة

— وما ذلك الا لانه فى مصر يعمل كالملك المطلق الارادة لايشوش عليه مشوش من المراقبات الشديدة ولا ينغص عليه منغص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر هادىء البال قرير العين بهذا السلطان القوي الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية وقد لقى من الامة مهاداً طرياً ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ومن الوزارة استسلاماً ليست العبودية أوفى منها فى العبد لسيده

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج الى الاعوان الذين يساعدونه . ومن عادة الملوك أن يختاروا فى كل دور من ادوار حياتهم الاعوان الذين يوافقون الظروف . ففى دور كان مع اللورد كرومر أعوان مثل

الجنرال غرنفيل في الحربيـة والـكولونيل منكـريف فى الاشغال والسير سكوت فى الحقانية والسير ادجار فنسنت أو بالمر وملنر أو غورست فى المالية ثم الداخلية

وفى دور كان معه المستر ماتشل فى الداخلية والمستر كوربيت في المالية والمستر دانلوب فى المعارف وهلم جرا

ولا خلاف فى أن هؤلاء يختلفون كفاءة كما انهم يختلفون استقلالا في الرأى مع اللورد . بل مما لا خلاف فيه أن اعوان جنابه فى هذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أو صغيرة جداً ثم ترقوا بحسن عناية اللورد وعظيم رعايته فله عليهم يد الفضل اكثر مما لهم عليه من يد المعونة الكبرى

والزمن الذى كان السير سكوت لا يقبل كل رأي يشار عليه به من الوكالة الانكليزية فى التشريع والقضاء . ويقول ان النظامات القضائية لا تحكي بناء القناطر وتشييد الجسور قد ذهب بذهابه. وجاء الزمن الذي يضع فيه اساس الادارة الداخلية فى البلاد كلها ويقول بضرورة الانقلاب العام واحلال العنف فيها محل العدل من كان قبل يضع سنوات

ضابطاً عسكرياً صغيراً يؤدى وظيفة عسكرية محضة

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ولكن نقول بالاجمال ان الذين يتولون ادارة البلاد الآن أعواناً للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة وخبرة كبيرة بأحوال البلاد حتى يكونوا بعد ذلك منظمين مصلحين ولا يمكن ان يكون اللورد عاملا بذاته فى كل مصلحة لان المراقبة العامة تشغله عن المراقبة الخاصة. فاذا حدثت حادثة غير منتظرة فى البلاد حالت بينهم قلة الخبرة وبين تكييفها بحقيقتها فأعطوها غير حكمها وبنوا على حدوثها تغييراً وتبديلاً فى النظامات قد يبعدان بها عن محجة الصواب بعداً شاسعاً . وكلما سأل جناب اللورد واحداً من اولئك الاعوان عن سبب حادثة ما أجابه بقدر مايعلم بالرأي الفطير فأمره بناء عليه بما يأمر الطبيب ممرضاً يخطىء فى أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الاعوان على غير خبرة كافية منهم وبالأوامر المطاعة من جناب اللورد

كرومر . وحيث اختلفت حواس السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الاشياء

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن فى ادارة البلاد وعيوب هذه الادارة تزداد وضوحا يوماً بعد يوم فيوجد فى عناصر السياسة المصرية الآن فراغ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سده بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تحكم به البلاد . ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وجد ناقصاً فى ذاته نقصا يقولون ان طبيعة البلاد اقتضه واللورد كرومر فى هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة فى عدة أبواب من تقريره الاخير حكم فيها حكماً قاسياً على استعداد الامة وقله استعدادها للنظامات الدستورية الكاملة

وأضف الى ذلك الاختباط وسائط شتى تحيط بالوكالة الانكليزية وكبار موظفى الانكليز جعلت همها تأويل كل حادث فى مصر بما يوسع مسافة الخلف بينهم وبين المصريين وتحريف كل كلمة تكتب فى الصحف المصرية بما يسوء سمعه حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير .

فلو وجد محللون كيماويون سياسيون خبيرون يحللون عناصر الحوادث التي تحصل فى مصر ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلا حقيقياً يردون به كل جوهر الى أصله وكل معلول الى علته وكل نتيجة الى مقدمتها ؟ـ ولو وجد من الانكليز فى وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرفين ـ والمحتلون أكثر الناس انخداعا بزخارف المموهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً ـ لما انعكست آية مابين ابناء البلاد وأولئك المسيطرين

*
* *

انعكست تلك الآية الى حد أن يظنوا ان حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الديني القائم الآن بين المصريين والاوربيين وهو ظن باطل ان لم يكن خطأً مقصوداً بالذات لتخفيف شناعة مافعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأي العام الانكليزى

والقارىء لما نشرناه اليوم نقلا عن جريدة التيمس يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجا فى البرلمان وهو

يسئل عن نقط كيفية تنفيذاً الحكم على الصورة الفظيعة التى حصل بها فلا يجد له جوابا سوى ان يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم جهار نهاراً على مرأى من أهل المحكوم عليهم نساء ورجالا ؟ ؟. سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يشنق المحكوم عليه بالاعدام ثم يبقى معلقاً على مرأى من بقية المحكوم عليهم به وبالجلد حتى يجلد أثنان ؟ ؟ .ـ سألوه هل حقيقة كان الشنق والجلد على مرأى من الاهل يبكون والنساء يندبن ويعولن؟؟

سألوه هل كان التنفيذ بواسطة الكبتن متشل مستشار الداخليـة (لانه لا يزال برتبة كابتن فى الجيش الانكليزى) وقد وصفوه وصفاً مهيناً جداً كما يرى القراء فى محضر جلسة البرلمان المنشور اليوم نقلا عن التيمس

سألوه أشياء من هذا القبيل فكان لا يستطيع أن يجيب بالايجاب وهو يعلم أن كل ماسألوه اياه واقع لا ريب فيه. وكان كل مايقدر عليه فى هـذا الموقف الحرج أن يعـد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية فى ذلك ـ ولو اجابهم بالايجاب

فى ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة وساء حال كبار المحتلين فى مصر بما لايعلم الا الله نتيجته

* * *

على ان اللورد كرومر وجد من هذا المضيق الخطر فرجا له ولوزير الخارجية فى جلسة تالية فاتهم الامة المصرية كلها بالتعصب الدينى على الاوربيين. وقال ان عمل الحكومة المصرية فى حادثة دنشواي كلها كان عملا استثنائياً اخماداً لثورة خفية في الطبقة النازلة من الامة وهدد مصر بمعاملات جائرة ربما اضطرت لها الحكومة اضطراراً. وكان هذا ختام فصول الرواية فى البرلمان الذى ترجح عنده الا ن ان الامة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواي وحدهم . وان مركز الحكومة المصرية يحف بالاخطار الهائلة ان لم يطلق لها السراح للنهاية فى استعمال كل ماتريد استعماله عند الحاجة مخالفاً للدستور ولطرائق الأمم المتمدنة .

* * *

ماالذي اوجب اللورد كرومر ان يدافع عن نفسه وعن بقية

أعوانه فى البرلمان بهذا السلاح الخطر المضر بمصر واهليها ؟؟

ماالذى أوجب القائمين بادارة مصر الآن ان يلجؤا الى هـذا العنف المودى باهليها اتهاما ؟؟

ماالذى اضطر ناظر الخارجية ان يهدد الامة المصرية فى مستقبلها مثل هذا التهديد ؟؟

اوجب ذلك كله ضعف فى سياسة القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد

ولـكن حنانيك أيها اللورد الـكريم وعطفا أيها العامل المصلح الذي ماعهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح وانصافا أيها الرجل الشريف النزيه الذي لا يرضيه أن تضحى مصلحة امة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه ـ أن يخـدعك عجز أعوانك فتحكم خطأ على امة كتبت صحف تاريخك فيها بيضاء فتعكسها آية انتقام لامحل له منك بما تجره عليها من الويل والثبور فى مصير الأمور

ولما انتهى من القراءة قال صاحبي لقد احسن الـكاتب واصاب الناقد فغمز بقلمه مكامن الضعف من تلك السياسة

وحسبنا الساعة ماسمعناه على أنى لااري رأيه فى النعى على هؤلاء المحتالين فيما يذهبون اليه من مذاهبهم فى ضروب الاستعمار وفنون الاستثمار. أنهم دخلوا فى الارض أصابوا فيها أنعاماً سائمة فاكتسحوها . وقطعانا سارحة فاغتنموها . ولو أنهم أصابوا نفوسا تشعر وأعصابا تحس لما بلغوا بها المبلغ الذى تراه

ارأيتك كيف يجمل بهم وهم أبطال السياسة وفرسان الدهاء ان يوقظوا بايديهم هؤلاء النيام . أو يحركوا بقوة العلم هذه الاصنام . فمن ذا الذى يقف بعدوه على سبيل الرشاد . أو يمهد لاسيره طريق الفكاك . انما تلك شمائل الانبياء وخلال الاصفياء لا فرق عندهم بين العباد . في سبيل الهداية والارشاد. قرأت في قاموس وضعه أحد الحكماء من شعراء فارس البس فيه الحكمة ثوب الهزل لترغب فيه العامة ولا ترغب عنه الخاصة فكان مما استوقف نظرتى . ولفت فكرتى . قوله فى تفسير لفظة النبى (فسرها بالمحب لأعدائه) وانك لاتجد فيما اعلم بين هذا الناس مهما اختلف القياس من يحب عدوه

ويرجوله الهـداية اللهم الا تلك الطائفة التى اصطفاها الله
فنزهها عن الاغراض وطهرها من الاحقاد والقوم ليسوا
بحمد الله من تلك الطبقة حتى نحسن الظن بافعالهم ونريدهم
على أن يعملوا على صلاح عدوهم فلا تعضنهم بأنياب الملام
ودعنا الساعة من ذكر السياسة فانني أخشى أن ترتفع أذيال
الظلام قبل ان نقضي اللبانة من رؤية تلك المراقص

ثم ودعناه وعطفنا على المرقص فما هو الا أن أحللنا حتى
نظرنا فاذا امرأة نصف قد تبذلت فى لباسها حتى خرج بها
التبذل عن أفق الحياء تكاد تتزايل من فرط التمايل اعضاؤها
وينعقد من شدة التهييف خصرها فهي تلتوى التواء الحية
الرقطاء وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء
فأجال صاحبي نظرة. فى انحاء المرقص ألمت بجميع مافيه ثم
دعانى الى النهوض فنهضت وما كدنا نجاوز الباب حتى أنشأ
يحدثنى فقال وهو يخافت من صوته إنى نظرت فما كاد يرتد إلى
طرفى حتى ألممت بجميع مايقع بين تلك الجدران من أسرار
هذه المخازى العصرية . قلت وما عسى ان يكون قد كشف

لك منها في هذه اللمحة اليسيرة والنظرةالقصيرة ؟ قال رب نظرة عجلى تنقطع دونها سوابق الافكار . وتنكشف أمامها غوامض الاسرار .

نظرت في تلك الصفوف فلم المح الارؤوسا مصرية وأزياء شرقية ثم نظرت فاذا الذى يحمل المدام .ويقف موقف الغلام لايخرج رأسه عن أفق تلك الرؤوس ثم تنقلت بالنظر الى الناقر على الدف والنافخ في القصب وحاضن العود وحامل المبذل وصفعان القوم فاذا كل أولئك من أولئك ثم أسرعت باللمح الى تلك النسوة المتبذلات.فاذا جميعهن من المصريات فأحزنتني الحال وزادنى حزنا أن رأيت ان المحتلب لهذه الجيوب والذاهب بتلك الارباح رومى غير مصري

فهب أن المصرى قد أعياه أمر النزوع عن تلك الشهوات أفلا يعرض له فكر الانتفاع بما يقع وراءها من المنافع وإسترداد هذا المال الضائع عجبت له أيذهب هو بالاثم .ويذهب بالمنفعة سواه. فما ضره قاتله الله لو ضم تلك الى ذاك . فقام بعمل الرومي وخرج من جدث هذا الجمود

ونفض عنه غبار ذلك الخمول .

قلت لقد اصبت مواقع الرأي ولكن الذين تطول ذلك ايديهم من ابناء وادى النيل ليشمخون بانوفهم عزة عن معالجته لانهم يرون ان العار كل العار فى النزول بالنفس الى تلك المنزلة وسيدى يعلم نفعنا الله بعلمه ان هؤلاء المصريين وان تقلبت بهم أحوال غير جميلة فسلبوا من الهمة بقدر مارزقوا من الخمول لايزالون يحفظون فى ثنايا النفوس بقية من شمم الآباء .ويخفون فى قرارتها صبابة من ذلك الاباء ولذلك ترى المصري كائنامن كان يؤثر حبس ماله عن استثماره والانتفاع به فى امثال هذه المخازي .فسلوته على ماأرى قد اصبحت فى الحرص على حياة تلك الذكرى فى نفسه فانك لاتجد فى خلق الله من يسرك مظلوما من غيره ويرضيك ظالما لنفسه اللهم الا هذا المصري المسكين على ان سيدى حفظه الله قد نظر الى الامر نظرة عمرانية فعز عليه ان يرى المصري مأكولا غير آكل وقد المّ صاحب المنار الأغر بما نحن فيه فكتب فى ذلك وابدع

وقال صلى الله عليه وسلم « لعن الله شارب الخمر وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه وآكل ثمنها » وقد احتمل اكثر المسلمين في مصر كل هذه اللعنات الا اللعنة الاخيرة فانهم حملوها للأجانب وأعطوهم أجرة حملها الملايين من الجنيهات والالوف من الفدادين

قال صاحبي الا ترى أنني كأني نظرت الى ما كتب بلحظ الغيب وهذه أمة الفرنسيس وهي اعرق الأمم مدنية وأقدمها حضارة لا يزال يرى فيها الرائي من المخازي العصرية اضعاف ما يجده في امة النيل ولكن افراداً منها قد انبروا الى التقاف ماتطوح به ايدي المستهترين في مهاوي تلك المخازي فلا يكاد يخطئهم دينار او يفلتهم درهم وقل أن يذهب الغريب في بلادهم بغير الصدأ من تلك النقود

قلت لقد اجمع المشتغلون بعلوم الاقتصاد على أنه ينبغي ان تترك الاعمال لأربابها فاذا نظروا إنسانا مضطلعا بعمل من الاعمال او نابغاً فيه تركوا له أمر الاشتغال به لينتفع وينفع . علموا ان الرومي لا يجارى في حسن القيام بشؤون المنتديات

والمراقص وأنه لايباري فى الصبر على احتمال ماهو فيه فأفسحوا له فى بلادهم مكانا وكانوا له عونا على انتشار صناعته .

هذه باريز على تسابق اهلها وتناحرهم فى شؤون الحياة لاتزال ترى فى هنا وثم منها أماكن للاروام بديعة النظام لايزاحمهم فيها مزاحم اللهم الا نفر من اهلها قد اودعت فيهم طبيعة الاستعداد الرومى فشاركوهم فى صناعتهم وصابروهم على احتمال ذلها.

قال صاحبي كان يكون ذلك شبيها بالحق فى امم الشرق لو أنهم تركوا مالا يضطلعون به وأخذوا فيما فطروا عليه من الاستعداد بالقيام به ولكنهم تركوا كل شيء وزعموا انهم عنه عاجزون. ظنوا بهذا الغربي الكمال فألبسوه ثوب الاجلال وغلوا ايديهم عن تناول مايطمح اليه نظره وحبسوا افكارهم عن السبح فيما يسبح فيه فكره قلت إنى ارى مولاى قد قتل شؤوننا بحثا فليس لى فيها ما أقول .

ومرت بنا فترة ونحن سكوت حتى اذا صرنا امام قصر فسيح من قصور الاغنياء قد خيم عليه الديجور وسكن

سكون القبور

نظر الى صاحبي نظرة ادركت مغزاها فقلت إنه قصر لغنى همه الجمع . وشيمته المنع . فهو لايخشى المعره . ولا يعرف سبيل المبرة . وقد بلغ من حرصه على الدانق والحبة انه اذا أغلس استصبح فى داره بالنجـوم لذلك لاترى فى فنائها قنديلا ولا يعرف الطارق الى بابها سبيلا

فلو يستطيع لتقتيره * تنفس من منخر واحد

على أنه قـد أفنى ثلاث عمائم الوانا فوقف على أبواب الفناء وهم سراج حياته بالانطفاء .

قال صاحبي عجبت لهذه الحكومات تسرع بالحجر على السفهاء من المبذرين وتتثاقل عن الحجر على هؤلاء المبخلين قيل لعمر بن الخطاب . قد جمع فلان مالا . فقال وهل جمع له اياما . ويلي على هذا الغني تنفق من عمره الايام . وتهدم من بناء هيكله الليالى فتسهل عليه النفقه من عمره وتعز عليه النفقه من ماله ولو انصفت الحكومات لسارعت بالحجر على امثال هذا الغني البخيل . قلت هب ان تلك الحكومات قد

قلت ليت المشرعين الذين يتفننون فى اساليب مايضعون يقفون لمحة امام هؤلاء الاغنياء ليعلموا أن الشرائع التى وضعتها يد البشر لاتزال فى حاجة الى الكمال

قال الراوى : ثم ساد بيننا السكوت وتمر بدار قدسطت عليها غياهب الليل. وخيم تحت سمائها الذل والويل. فيقول لى صاحبي لمن هذه ؟ قلت هى لرجل كان مكفى المؤنة فى دهره. مستور المعيشة فى عمره. فابى الا المتاجرة فيما يخرج عن الطوق فأكل الطمع منه رأس المال . ورده الى ماترى من سوء الحال

قال صاحبي: لقد نظرت فى سوادهذه الأمة فلم أجد الا احد رجلين رجل ركّب فى طبيعته حب العمل وركّز فى طباعه التهور في كل مايأخذ فيه وهو لايملك الامائة من الذهب يرمى بنفسه فى غمار الأتجار بما يخرج عن طوقه فيسوقه التهور الى الاستدانة وتوسيع هالةعمله فلا يلبث ان تذهب بمائته المقاضاة ـ ورجل بني على الحرص وفطر على الخمول وهو يملك الالوف فيدعوه الحرص الى حبسها ويقعد به الخمول عن استثمارها فلا هو ينتفع بألوفه ولا

النـاس تنتفع بوجوده. ثم حانت منـه التفاتة الى السماء فاذا الظلمة تنجلي عن اطرافها انجـلاء الخضاب عن القـذال الاشيب فصاح بي على رسلك ايها الصاحب فلقد أفجرنا.ألا تنظر بربك الى الأفق وقد نظم الفجر حواشيه.فوضح للعين ماقال فيه.صاحب هذا التشبيه

وقد رفع الفجر الظلام كأنه ظليم على بيض تكشف جانبه

فانطلق بنا الى بيت من بيوت الله نقضي فيه الصلاة

فانطلقنا الى مسجد قريب قضينا فيه صلاتنا ولم نبرحه حتى برحت الشمس خـدرها فقلت له أعزم سيدي على الرجوع الى ابيه. ام على الاخذ فيما كنا بالامس فيه .قال اني ليحزنني ان اعود قبل ان ارى اسواق هذه الحاضرة وأقف على شيء من عاداتها قلت لله ابوك فما عدوت مافي النفس.ثم اخـذنا طريقنا الى الغورية وتباطأنا في السير ريثما يتعالى النهار وتبتدئ الحركة في الاسواق وكنت كلما حدثته في شيء بهرني واسع علمه.فما سألته عن امر الا اجابني فظننت انه لايحسن سواه. فمـا زلنا كذلك حتى بلغنا المكان الذي نقصده وكان يومنا

هذا طليعة لموسم من مواسم العام عند المصريين فماجت بهم الطرقات وغصت حوانيت التجر بالمساومين فاشرق وجه صاحبي سروراً وتألق بشرا حين ظفر بضالته وأصاب مشهداً من مشاهد المجتمع البشرى تحشد فيه طبقات الناس فيجد الناقد السبيل الى نقد العادات والاخلاق التي يثيرها احتكاك ذات الصدور. ويبرزها تبادل ذات اليد. فيجتلى منها الباحث فى علوم الاخلاق مايجتلى حتى اذا انقلب عن موقف اشرافه وموطن تأمله إنقلب مبرود الغليل جم فوائد الاطلاع. عزيز جانب الاقناع. فما لبث صاحبي ان رمى بنفسه فى غمار هذا الزحام وتعقبته اكاتف مرة وازورّ أخرى حتى خلصنا الى مرقب يمكننا من الاشراف ثم اخذنا نتأمل فى سواد هذا الناس فاذا التجار منتشرون على ابواب الحوانيت واذا السلع معروضة للمساومة وقد جعل كل يبالغ فى تنفيق سلعته بضروب التمليق. وصنوف التزويق. فكان التاجر لا يمر به مار إلا جذب بطرف ردائه واراده على الابتياع من حانوته مزينا له حسن سلعه ملحا عليه بالرجاء مقسماله بكل محرجة

من الأيمان انه مادعاه الى ابتياعه لا يوجد عند غيره وأنه
ان فاته الظفر به فقد فاته الحظ واخطأه التوفيق

وكان كيسهم اذا ظفر بقدم من أقدام الريف حط
عليه بأنواع الدهاء ثم واثقه على ان يطرفه بانفس ماعنده حتى
يثلج الرجل الى قوله فاذا علم انه سكن اليه بهره بطائفة من
الفاظ الثناء قد خزنها في رأسه وادّخرها لوقتها . فلا يكاد
المسكين يفيق من نشوة الفرح بما سمع من الاطراء حتى
يعاجله الخبيث بتعليق سلعة فى عنقه مشفوعة باخرى فوق
رأسه معززة بثالثة تحت إبطه فلا يبرح الحانوت حتى تبرح
الدراهم مخبأها فيخرج وقد انتفخت اوداجه من كثرة هذا
النفاق. وهبط كيسه من فرط ذلك الانفاق

واخر قد تخلت عنه العناية ونام عنه الجد يمر به الضيد
فلا يحسن القاء الحب لما ابتلى به من حب الصدق وكراهة
تزويق الكلام فيقف سراة يومه يستقبل من أولئك الاقدام
وهم يلؤمون فى المساومة ويشتطون فى الطلب ويتعنتون
فى توسم السلع حتى اذا قلبوا احشاء الحانوت قلبا خرجوا

كما دخلوا لانهم لم يأنسوا فى رب الحانوت ماعتادوا ان يسمعوا من صنوف التمليق

قال الراوي ولبثنا فى مرقبنا هذا حتى سامتتنا الشمس ووجدنامسّ الهجير فأومأ صاحبي اليّ بالمسير فتسللنا من تلك الجموع حتى انتهينا الى مكان قدحجبت شمسه واطلق سراح نسيمه فهاج فينا روحه شجون الحديث فانشأ صاحبي يقول

حكى ان احد الملوك ارتأى ان يفتتح مدينتين على حدود ملكه فكاشف فى ذلك احد وزرائه وكان حكيما مدربا فضرب الوزير برأيه فيما افضي به اليه الملك ثم قال له اذا رأى الملك ايده الله قبل المخاطرة بالمال والرجال ان نعلم علم القوم فنخرج في سرٍّ من الناس فاذا خالطناهم وعرفنا اوزان رجالهم ومقياس اخلاقهم هيأنا لهم على قدر مانري منهم فاخذ الملك برأي الوزير وانطلق اثناهما فى زي العامة حتى بلغا احدى المدينتين فى ضحوة من النهار فعمدا الى سوقها الكبرى وعطفا على حانوت هناك قد نظمت فيه صنوف الاقمشه فجلسا الى ربه وطلبا اليه عرض سلعة سمياها

له فقال لهما التاجر لقد كان في يدى شيء كثير مما تطلبان
ولكنه قدنفد منذ اليوم واظنكما لاتصيبان منه في غير ذلك
الحانوت واشار لهما الى مكان في زاوية من السوق فلم يأخذا
بأشارته وعمدا الى تاجر آخر فكان نصيبهما منه نصيبهما
من الاول فقصدا ثالثا فكذلك . فعرجا على رابع فكذلك.
وما زالا يتنقلان في الحوانيت ولا يظفران من اربابها
بغير تلك الاشارة حتي ضاق الملك ذرعا فكر راجعا
الى اول من لقياه وقال له مالنا كلما عطفنا على احد من تجاركم
واردناه على ابتياع سلعة من سلعه أبى علينا البيع وصرفنا عنه.
بربك إلاّ ماصدقتنا خبر تلك الاشارة.قال التاجر اما وقد
اقسمت فاعلم ان صاحب الحانوت الذى حاولت صرفكما
اليه قد مرت به ثلاثة ايام لم يطرقه فيها طارق بخابئة خير
ولم يفتح عليه بشيء من الرزق وقد أدّر الله لاهل السوق
أخلاف الارزاق فكرهوا ان يصبح صاحبهم ويمسي وهو
على غير حالهم من التيسير لذلك تراهم يطلفونه بالطرّاق لعله
يصيب مايصلح به حاله ويقوت عياله

قال الملك بارك الله فيكم وعليكم ثم اسرع الى ذلك الرجل فابتاع من سلعه وقر بعير حتى كاد يأتى على مافى الحانوت وتركه وقد انساه ربح يومه مامر به من كساد تلك الأيام

قال الراوى ولما خلا الملك بوزيره قال له ماالذى وقفت عليه من احوال القوم قال الوزير ان من لبسهم على ظواهرهم راقه منهم ذلك الأدب واعجبته تلك المصافاة ومن استبطن امورهم وقف منهم على مروءة لا تكون فى غير الرجال وقناعة لا تسكن فى غير النفوس العالية يكسو ذلك منهم حسن الاتحاد ويزينه الأيثار ولا احسبنا بالغين منهم ما نريد حتى نركب الصعاب. ونقاسى العذاب. على ان سكان هذه المدينه لا يربو عددهم على عشرة الألاف

ثم انطلقا الى الثانيه فاذا بها تموج بسكانها فوقفا فى سوقها الكبرى وقفة كان فيها الغناء عن كل شىء. كشف لهما من اخلاق القوم ما كشف لنا اليوم من اخلاق اهل هذه الحاضرة فآنسا منهم الأثرة مكان الايثار. والتدابر مكان التكافل. فلم يلبثا ان كرّا راجعين وما هى الادورة من دورات الفلك

حتى خفقت راية ذلك الفاتح على اسوار تلك المدينة وامتنعت عليه الصغيرة حتي هم بالانصراف عنها لولا حيلة دبرها الوزير فكان فيها الفتح

ذلك مثل المدينتين فانظر الى أهل هذا البلد واعلم انهم يتناصرون ولكن على التخاذل ويتعاونون ولكن على تسويد الغريب . فهم لايملكون لانفسهم الا الضر حتى او شك ان يصح فيهم قول كاتبهم الكبير[١] عفا الله عنه « هذا بلد لايخاف المرء فيه الا من نفسه » وطيب الله ثرى فقيد الاسلام الاستاذ الامام فقد سمعت عنه كلمة من مأثور القول افرغتها الحكمة فى قالب الاختبار « هذه الامة حياتها فى موتها » قلت وعلى ذكره رحمه الله أروى لك عنه مايكشف عن اعتقاده الراسخ في افراد هذه الامة ـ صحبته مرة فى احدى روحاته الى عين شمس وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام وكنت انبسط معه على الحديث فكان مما ذكر لى في هذه الليله انه القي اليه كتاب كتبه

---

(١) المرحوم ابراهيم بك المويلحى .

صاحبه وابليس جاثم بين كتفيه ينذره فيه بالقتل ويتوعده
بالاغتيال ـ ذكرلى ذلك كمن يذكر نبأمن الأنباء التى
يسوقها الحديث فلم المح على وجهه ماينم عما وقع فى نفسه
من أثر ذلك الكتاب ثم خاض فى غير مااخذ فيه حتى انتهينا
الى طريق مقفر قامت على عطفيه طائفة من النخيل وكان
لا بد لنا من ركوب ذلك الطريق للوصول الى الدار. فسرنا
فيه تحت الليل والظلمة تقبض البصر. وتدعو فى كل خطوة
الى الحذر.فقلت له وهو يخوض فى احشاء الظلام الا يخشى
مولاي حرسه الله ان يقوم صاحب الكتاب بالوفاء فيكمن له
فى لقمة من لقم هذا الطريق ويبلغ منه مابلغ ابو لوءلوءة من
الفاروق فيطعن الاسلام طعنة ثانية . تذهب بهذه البقيه
الباقية. فنظر اليّ نظرة لمعت فى تلك الظلمة لمعانا ساورتنى
منه الهيبة وقال لى اين يذهب بك يابنى فتالله انى لاهنىء
نفسى اذا وجدت فى هذه الامة من يقدر ان يقول لى
اخطأت فى وجهى فكيف بى اذا وجدت من يقوى على رفع
يده لقتلى..

ذلك كان اعتقاده فى امة وادى النيل ولم يكن رحمه الله
منفرداً بهذا الرأى فقد سمعت غير واحد من الحكماء
والادباء يبالغون فى وصف ما نحن فيه حتى وعيت عن بعضهم
كلمة مادرى صاحبها بأى درة رمى (لقد نزلت هذه الامة
منزلة من الخمول هبطت بها الى مصاف العجماوات حتى
خشيت ان يخطئها البعث فى يوم البعث) فما ظنك ياسيدى
بأمة اصبح بعضها يخشى عليها ان لاتحشر مع الامم اللهم ان
هذا منتهى أمد الخذلان. موت فى الدنيا وموت فى الاخرة.
ثم قمنا الى مسجد فقضينا فيه الصلاة وعطفنا بعده على مطعم
فتناولنا ما نمسك به الرمق واستأنفنا المسير وبينا نحن فى
طريق عابدين اذا لفيف من التلاميذ يهرولون وهم من
امرهم على عجل واذا لفيف اخر على اثارهم فقال لى صاحبي
مالى اراهم يسرعون والى اين هم ذاهبون قلت انهم يؤمون
الاحتفال الذى تقيمه نظارة المعارف للألعاب فتتسابق فيه
التلاميذ تسابق الجياد ويتبارون فى الألعاب الرياضية كما يقولون
وهو احتفال يشهده عميد الدولة الانكليزية ويتأنق فى تزيينه

بطل رجال الانجليز مستشار المعارف المصرية ذلك الذى ابلى
البلاء الحسن فى قتل النفوس واستحيا الجسوم وجعل الجوائز
السنية لكل سابق فى هذا المضمار لذلك ترى نظار المدارس
لاهمّ لهم فى غير تعهد الاشباح . والويل لمن يعثر به الجد فى
يوم ذلك المهرجان .فلا تفوز تلاميذه بجوائز الامتحان.ولقد
بلغ من ولوع المستشار برؤية هذا المشهد انه يستقدم التلاميذ
من اطراف البلاد فيجمع تلميذ رأس التين بتلميذ عابدين
والطالب فى اسوان بمثله فى حلوان وحكومة البلاد تقوم
بالنفقات . علي هذه الملاعب وتلك التنقلات

قال صاحبي وهو ملق بسمعه اليَّ ومقبل بوجهه عليّ لقد
احسن القوم صنعا فيما يحتفون به من ذلك ولا احسبهم الا
مبالغين فى الاحتفاء بتعهد الارواح بعد تعهد الاشباح
فيحسنون جوائز الناجح فى العلوم حتى يصح ما يتمثلون
به من قولهم (العقل السليم فى الجسم السليم) قلت لو كان
ذلك كذلك لوجدنا سبيلا الى مزاحمة الاحياء وبسط
كل رجاء فى اضطراب جده واسعاف ذات غيبه ولكنهم قضوا

على احدهذين السليمين فاهتموا ببناء اسوار الابدان اهتمامهم باقامة الخزان وارتفاع الاطيان ومحوا آثار تلك الاحتفالات التي كانت تقام بمدارس الحكومة على نفقة الحكومة يشهدها عزيز مصر فى حملة عرشه ورجال دولته وسروات امته ويلطفون فيها الفائز بكل سنية من الجوائز. فكان الطالب فى ذلك العهد يرصد هذا اليوم المشهود ويرتقب حلوله وهو منكمش فى الدرس مقبل على التحصيل مكب على التشمير فى احد فروع العلم الذى يميل بطبعه الى النبوغ فيه حتى اذا حل يوم فخاره بين أترابه استقبله على عدة فيدخل فيه دخول المقدام الجسور. ويخرج منه خروج الفاتح المنصور

قال صاحبي اذا صح انهم يحتفون بالاشباح دون الارواح فقد احسنوا القيام بالواجب فانما هم اعداء لكم وما رأيت قبلكم من طلب من عدوه صلاح حاله — فلا حياة لهذه الامة اذا هى لم تستمد حياتها من سوادها فيقوم من اغنيائها من ينعم النظر فى صلاح شؤنها. بربك هل رأيت غنيا من هؤلاء الاغنياء أصبح وقد خصص شطراً من دخله لنصرة

العلم فما لكم تنحون باللائمه على رجال الاحتلال وانتم أصل ماأنتم فيه من البلاء — أو ليس حسبكم منهم انهم لا يضربون على يدي عامل . فما عساهم ان يصنعوا بكم اذا قام لفيف من أغنيائكم وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية او ماعساهم ان يصنعوا بكم اذا خصص هؤلاء الاغنياء جوائز للفائزين فى العلوم وارصدوا جعالات لكل بارع فى صنوف التأليف اومعرب لتلك التصانيف التي ضاقت بها رحاب المغرب واقفرت منها مكاتب المشرق اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون. قلت لقد صدق الذي قال انما تصلح هذه الحكومة على ظلمها لتلك الامة على نومها

ثم اردت الترويح عن نفسى بالخوض فى غير تلك الاحاديث فقلت له ماالذى يراه سيدى بشأن تلك الشركة السودانية التي خفق لها العلمان على اطلال ام درمان فالتفت الى متبسما وقال

وقف شريكان شرقي وغربى أمام المرآة وفي يد الغربي قطعة من الذهب فقال له شريكه الشرقى وقد تلطف .

الا تعطيني قسمي من تلك التي بيدك قال الغربي أماوقد اردت
القسمة فاعلم ان التي بيدى هى لى وتلك التي تراها فى المرآة
هي قسمك ونصيبك. ذلك مثلكم مع القوم فى شركة السودان.
قال الراوى فندمت على هذا السؤال الذى أضفت به هما الى
همومي ثم عزمت في نفسى على الخروج من دائرة الكلام
على السياسة والدخول في باب المحاضرات الادبيه فقلت له
ألا أحدث سيدى باحسن ماورد على سمعي من الحديث قال
ألطفنا بما عندك

قلت سكر أحد ملوك الفرس ذات ليلة واحسبه قمبيزا فسأل
جلساءه وقد علت الخمرة ذؤابته أينا خيرٌ انا أم أبي فكلهم
تزلف اليه بتفضيله على والده الا جليسا بينهم يقال له قارون
وكان أكرمهم عليه. وأكثر توفيقا لديه. فانه قال له بل أبوك
خير منك فغضب الملك حتي خافه الجليس على نفسه فعطف
قائلا فضلت أباك لانك كنت عنده وليس عندك اليوم من
هو مثلك

وقد وقع لى ماوقع لهذا الجليس وركبت ذلك المركب

الذى يرمى بصاحبه الى مواطن الشرور - قال صاحبي وكيف
كان ذلك قلت جلست مرة على مائدة أحد الكبراء من رجال
الانكليز فى الجيش وانا اذ ذاك ضابط صغير وكانت ليلة
وداع لعظيم من عظماء القواد في الجيش المصرى انطوت
مدة خدمته فيه و قد شهد المائدة معي لفيف من ضباط الانجليز
والمصريين وقد أجلسوا بجانب كل مصرى منا انجليزيا منهم يحدثه
ويباسطه وكانوا لا يتنازلون الى الحديث معنا فى غير تلك
الاحتفالات التي تطرح فيها أبهة الرياسة فأخذت فى الحديث
مع جبار من جبابرتهم أجلسته المصادفة على يمينى وساقنا الكلام
الى ذكر الاتراك وما كان منهم فقال لي وهو يتكلف البشاشة
أنحن خير أم هم فاجبته بتفضيل الاتراك وتالله انى ما كدت
انطق بالكاف حتي رأيته وقد تمعر وجهه واغتاظ حتى كاد ينشق
إهابه غيظا فاحسست بالشر ولكني عمدت الي الحيلة فعطفت
قائلا فضلت الاتراك اذ لولاهم لما رأيناكم فهم أصل ما نحن
فيه اليوم من سعة العيش وبشاشة الحال فاشرقت اساريروجهه
وسرى عنه ما كان قد نزل به من الغضب

قال صاحبي أولى لك فلقد نجوت من شر هذا الجليس بفضل ذلك الجليس . وما كدنا نأتي على هذا الحديث حتي دانينا فتي يتوكأ على عصا وهو لايكاد يحمل بعضه بعضاً من فرط الهزال . وما تنطق به معارف وجهه من آيات سوء الحال يرد. عن نفسه حملات الألم. وصدمات السأم. باناشيد أودعها من الانين. مايعلم به الصخور كيف تلين. فاستوقف هيكله أبصارنا. واسترعى صوته اسماعنا فاذا به يغني هذه الابيات

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت

حواشيه حتي بات ظلما منظما

تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى

وان أصبح المصري حراً منعما

أعد عهد اسماعيل جلداً وسخرةً

فاني رأيت المنّ أنكي وآلما

عملتم على عز الجماد وذلنا

فأغليتم طيناً وارخصتم دما

ولما أتى على نشيده دانيناه . وبالتحية بادأناه . ثم ابتدره صاحبي بالسؤال : لمن الشعر ايها الاديب . قال لاحد شعراء الوقت . قال وهل ترى رأيه فيه . قال ومن ذا الذي يخالفه فيما يرتأيه . وقد نطق حقاً . ونظم صدقاً . قال وأين أنت من القوم . قال من أولئك الذي نقموا الرضا على العهدين . ولم يحمدوا مغبة الحكمين . عهد الدولة التركية . وعهد الدولة الانجليزية . ففي اولها فاضت المظالم وغاضت الاموال . وفي ثانيها أخصبت الارض وأجدبت الرجال قال وهل أنت في خفض من العيش . أجاب لا أشكو بحمد الله عسرا . ولا أرجو يسرا . وانما أنا أتفيأ ظل هذا البيت العربي . لذلك الشاعر الابي

مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة

حظ لعمرك لم يحمق ولم يكس

قال وأين مكانك من العلم . وأين منك منزلة الحلم . قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام . الاستاذ الامام طيب الله ثراه . وجعل النعيم مثواه . قال انى لا أرى رأيا

حصيفا . وأسمع قولا شريفا . فمن أى تلاميذه تكون فقد
سمعنا انهم فريقان . فريق قد اختصه بسياسته . وفريق قد
اختصه بعلمه . وقد أثنى عليهما النعميد . وتنبأ لهما بالطالع السعيد .
قال لا علم لى بما تقول . فلقد كنت الصق الناس بالامام
أغشى داره . وأرد أنهاره . والتقط ثمارد . فما سمعته يخوض
فى ذكر السياسة قبحها الله . ولكنه كان يملأ علينا المجلس
سحرا من آياته . وينتقل بنا بين مناطق الافهام . ومنازل
الاحلام ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق
وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر أحوال
هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شؤون الاجتماع وحاج العمران
ووقف بنا على أسرار الحياة ولم يزل ذاك همه رحمه الله .
يلقي فى الازهر دروس التفسير وفى داره دروس الحكمة
حتي مضى لسبيله. فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا ويقسمون
تعاليمه أبوابا . فتلاميذه حزب العلم والعرفان . وتعاليمه سياسة
التقدم والعمران . على انه كان من أشد الناس تبرما بالسياسة
وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها فقال عنها فى كتاب

الاسلام والنصرانية ما قال

. لكنه كان يحتك بها ما دعت إلى ذلك الحاجة ويرصد حركاتها رصدا . ويصد غاراتها صدا . خشية أن تقطع على العلم سبيله . أو أن تقف عثرة فى طريق الفضيلة . ولو لا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه . وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه. فكم تلطف في ابتزاز قواها . وتحامى جهده طريق أذاها. حتى اذا ظفر بطلبته . وفاز برغبته . واستمد منها ما شاء . تحت حماية الافتاء . عطف على العلم بذلك الامداد . ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد . ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليردعاديته . ويفسد عليه سياسته . فى مصادرة العلم . ومصارعة الحلم . أما تري بربك أثر ذلك فى المدارس . وما عبثت به يد ذلك السائس . ولولا ان الامام مادهم حبل الوداد . وجاذبهم فضل النصح والارشاد . لاصابه ما أصاب حكيم الافغان . وقضى على هذه الامة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ويصلح ما تفسده أهل الدسائس . فكم زحزح عنا حادثا . ودفع

كارثا . ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس في دنشواي لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص. ولما ارتفع صوت العميد . بذلك التهديد والوعيد . ولما نزع الى كتابة ذلك التقرير . الذي جاء أبلغ ما تملي الضغينة على الموتور . فكان فيه كثير جموح اليراع . ضعيف جانب الاقناع . كانه يكتب مقالة خيالية . الى مجلة سياسيه . وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه

لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الاعلى . فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غض أمر الردة من شرف النبوة ولا نال من عصمة الرسالة ولبث الاسلام اسلاما . ومات الاستاذ الامام رحمه الله فصبأ بعض حزبه كما يدعون واستغفر الله لهم مما يقولون فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ولا مس من سيرة ذلك الامام

أراد بعض مريديه أن يغني غناءه وأن يفعل شرواه في التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنا فرمى بنفسه في أحضانهم

وليست له مكانة الامام من نفوسهم ولا منزلته فى قلوبهم فقصر ولا بدع وأخفق ولا عجب فان الفراغ الذى تركه الامام لا يشغله الالوف من اولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح . وينعون عليه مذهبه فى الاصلاح . ولما ظهر ذلك المريد بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناس منه ذلك فطارت حوله الشبهات وانبسطت فيه الالسن وأخذته سهام الاقلام على انه وان أخطأه التوفيق فى عمله فما أخطاه حسن القصد ولا جازته سلامة الطوية فوجد بعض المرائين السبيل الى تشويه سمعة الامام بعد موته وبالغوا فى ذم حزبه وزادهم ضغنا ان قرأوا فى تقرير العميد ما قرأوا وظنوا ان هناك حزبا يعمل ولو أراد الله خيرا لهذه الامة لسخر لها من تلاميذ الامام من يقوم بالدعوة الى التام ذلك الحزب الذي أودع فيه الامام من أسرار حكمته ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذى أصبحنا نساق اليه سوقاً أعجلنا عن النظر فى أمورنا فأمسينا أتباعا لكل ناعق

قال صاحبي وقد هاله ماسمعه أكان يكون بين ظهرانيكم

أمثال أولئك الامناء على تعاليم ذلك الحكيم ولا تتعلقون
بأذيالهم على اني لا أرى فيكم الا ناعيا عليهم مشهرا بهم فان
كنت لم تكذبني القول فتلاميذ الامام حقيقون باللوم لانهم
يعلمون الحق ولا يدعون اليه . علموا ان لا حياة لهذه الامة
بغير الجامعة فما لهم لا يواصلون قرع أنوف الاغنياء بالمواعظ
ويوالون الصياح بطلب تأسيسها فتلتقي أصواتهم بالنداء في
أنحاء القطر ولكنهم سكتوا . اللهم الا شاعرا منهم قد قرض
قصيدة وقاضيا قد حبر مقالة في سبيل الجامعة درج كلاهما
في أثناء النسيان لجمد الاغنياء عن البذل لجمود أولئك الوعاظ
عن الكلام وتدفقوا في انشاء الكتاتيب حين ساقتهم الحكومة
الى ذلك ولو علموا أن انتشار التعليم الناقص شر على الناس
من بقاء الجهل لما بذلوا في سبيله ما بذلوا فكان مثلهم في
ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ليقع تحت براثن
الليث لانهم انما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل
ولكن بداء الغرور فسبيل الاصلاح ان ينشأ الكتاب وتبنى
الجامعة في وقت معا حتى اذا أخرج الاول نصف انسان

أطلعت الثانية انسانا كاملا فتكفل هذا الكامل بصلاح ذلك الناقص فتماسك الامة ويكثر فيها الدعاة الى الخير فليس بينها وبين الحياة الا أن يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الافكار ويسلكون بها سبيل الرقي ومن رأى ان هذه الامة لا تنهض الا بتعليم مجموعها وتهذيب أفرادها فقد أخطأ مواقع الرأي فكم نهضت أمة بفرد وأسست دعائم دولة على عزائم آحاد وفوا قسطهم من العلم الصحيح وأخذوا نصيبهم من الاقدام .

وقد انصرف الناس الى الصياح بطلب انتشار العلم ونسوا ان ذلك لا يغني عنهم شيئا اذا أعوزتهم تربية القادة وعزهم بناء الزعماء فاعلم ان بناءة الرجال لا تكون الا في بناء الجامعة

قال الاديب وهل يكفي العلم وحده لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخلق والدين . فسوق عن أمر الكتاب . وطاعة للهوى . فلا وازع من الدين ولا زاجر من الخلق فاذا تزعزعت العقيدة ولم يطمئن الطبع قل أن ينجع في الناس

علاج العلماء أو تأخذهم صيحة الخطباء

قال صاحبي . صدقت ولكن ما تراه أنت خطبا كبيرا لم يكن فى نظر الحكمة الا أمرا يسيرا واني ذاكر لك دواء هذا الداء وهو أيسر مما فى نفسك فلا تنزل أمري معك على المزاح ولا يصغرن فى عينيك ما آتى ما ألقي عليك فرب مؤرب من العقد ضلت حله الحكماء واهتدت اليه خطرة من الفكر يرمي بها أحد العامة . وتغفل عنها عقول الحامة . ولعلك اذا سمعت ان الدواء الناجع والعلاج النافع لا يحتاج الى مقدمات طويلة . أو فلسفة جليلة . أصغرت ما كنت تكبر . واستنزرت ما كنت تستغزر فاعلم انه اذا أقفلت أبواب المنتديات . وأطفئت أنوار الحانات قبل منصف من الليل . انحرف عنكم جارف هذا السيل

هذه لندرة لا تكاد ترى فى حوانيتها ساهرا . ولا تجد فى طرقاتها عابرا اذا انقضى الثلث الاول من دولة الظلام وتلك (ڤينا) يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى . ويحول الظلام بين الارجل والسرى . فاذا شب الليل أو كاد .

سكنت حركة العباد . فما لكم لا تأخذون نفسكم بتقليد
تلك الخلائق . وقد ائتمروا باوامر الخالق . ومالكم لا ترجعون
الى الفطرة البشرية. أو تخضعون لنواميس السنة الكونية .
فتجمعوا فى ذلك بين الدنيا والدين . ولا تعقوا أوامر
الكتاب المبين . يا ويلكم أحييتم ليالي العمر بالآثام . وأمتم
أيامه بالمنام . فعكستم الفطرة ولا بدع اذا عكست آمالكم
وخابت أعمالكم . خذوا مضاجعكم اذا طر شارب الظلام .
واهجروها اذا تنفس الصباح ففي ذلك صحة لابدانكم .
وسلامة لاديانكم

اذا شئت أن تعرف ما وراء ذلك من المنافع فاني أعد
لك منها ولا أعددها . منها الرجوع الى المعيشة المنزلية التي
انحلت بزوالها روابط الاهل والاقارب ويبس ما بين
البيوتات فتناكر الاخوان . وتدابر الجاران . وأقفرت المنازل
من انس السمر والف الناس الجلوس فى المنتديات حتى انهم
ليوحشون فى ديارهم لقلة زوارهم وأصبح المرء فى داره حاضرا
كالغائب مقيما كالنازح يعلم من حال البعيد عنه ما لا يعلم من

حال القريب منه.

ومنها اجتياز العقبات التى أقامتها المنتديات والحانات في سبيل الاجتماعات — كان المصريون فى العهد الذى نسميه اليوم بعهد الظلام يجتمعون في الدور ويتزاورون فى القصور وكانت سراتهم وذووا اليسار منهم يجلسون فى بيوتهم للسمر فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ويقصدها التاجر ويتجمها الاديب فتجري بينهم الاحاديث وتقوم سوق المناقشات — يحدث الحادث فيخوضون فى ذكره وتنزل النازلة فيجمعهم الالم على العمل على ازالتها وتطل رؤوس المشروعات فلا يفتؤون يتبينونون معارفها حتي يقتلوا اشؤونها بحثا ويقفوا على وقائعها جدالا وينزل باحدهم المكروه فلا يزالون يتلطفون بالسعي له حتي يأخذوا بيده وينهضوا به من عثرته — عقدت بينهم الزيارات . عرى المودات . فتراهم وهم كأنهم أهل بيت واحد يألم الجار للجار . ويأخذ الناهض بيد ذى العثار . بربك هل نهضت أمة بغير ادمان المجتمعات . وهل أخصبت مودة اذا هي لم يتعهدها أهلها بالزيارات . لقد جار فى حكمه من قضى

على المصريين باستحالة الاتفاق وجعل تلك الكلمة التى رمى بها حكيم الافغان أساسا لحكمه فصرفه التقليد عن النظر اليها بعين عقله فمن أين للمصريين أن يتفقوا اذا هم لم يجتمعوا

ومنها اقتصاد المال وأنت ترى ان هذه الستة الافدنة تكاد تبلع ما تخرجه ارض وادي النيل من الخيرات ولا يغرنك ماترى فى عاصمة الفرنسيس فان أهلهامن الاكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب ولكن من جيب الغريب ونحن انما نفعل ذلك ليذهب الغريب باموالنا . ويسخر من جهالنا

